

# الى اجابات الشخصية

## الصحة والتداوى

لو قيل ان العناية بالصحة والمبادرة الى ترميمها بالتداوى كلما تشعّشت هو من أول الواجبات الشخصية وأو كدها لما كان في هذا القول مبالغة أو غلو . ألم يقل علماؤنا : ان ما لا يتم الواجب الا به كان واجبا . واذا كان الانسان لم يخلق في هذا العالم الا لقيامه بالواجبات التي سنسردها في هذا الكتاب ، وكان قيامه بها لا يتم الا بالجسم الصحيح القوي - كانت الصحة والقوة وتوفيرهما مما يجب على الانسان بالطبع ليتمكن من قيامه بواجباته المذكورة بنشاط . ومن الأحاديث الشريفة الدالة على هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ نَفْسُكَ مَطِيئَتُكَ فَارْفُقْ بِهَا ﴾

وذلك بأن لا تحملها فوق طاقتها ، واذا أصابها ضعف أو مرض فعاجلها بالرّاحة والعلاج وارجاع الصحة والقوة اليها لتتمكن من الوصول الى أغراضك ومصالحك عليها . وفي هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الاخر أيضا :

﴿ إِنَّ لِّجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ﴾

وهذا الحديث بنصّه يدل على أن الصحة من حقوق الجسد التي له أن يطالب بها كما يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة وانعاش البدن وتقويته واجب على المرء كسائر الواجبات الشخصية والاجتماعية الاخرى التي سيأتي ذكرها . وجاء في حديث آخر :

﴿ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ﴾

وقوة المؤمن الجسدية انما تنشأ عن مراعاة قوانين الصحة التي أرشد اليها العقل وحض عليها الشرع. ومن هذه القوانين الصحية - بل من أجدرها بالعناية والاهتمام - النظافة وقد حض عليها الشرع الاسلامي حضاً لم يساوه فيه دين من الأديان ، ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التي تتوقف عليها صحة العبادة ، فمن لم يغتسل ولم يغسل أطرافه الفَيِّنَةَ بعد الفَيِّنَةِ (١) لا تصح صلاته . وقد جعلها أيضاً من الإيمان صراحة فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ ﴾

نعم ان حض الشارع المؤمنين على النظافة وان كان مراعى فيه الغرض الدنيى وهو صحة العبادات والغرض الشخصى والاجتماعى وهو أن يصبح المرء مكرماً بين اخوانه محبباً الى قلوبهم هو أيضاً قد رُوِيَ في الغرض الصحى لأن علاقة الصحة بالنظافة لا تخفى على الجاهل البليد فضلاً عن الشارع الحكيم وجاء في حديث آخر :

﴿ أَخْرِجُوا مِنْدِيلَ الْغَمَرِ مِنْ بُيُوتِكُمْ : فَإِنَّهُ مَبِيتُ الْخَيْثِ وَمَجْلِسُهُ ﴾

يأمرهم بأن لا يبيتوا معهم فى مخادع نومهم المناديل التي يتمسحون بها من الطعام ، ويكون قد علق بها الوُضْرَ والِدَسَمَ وهو « الغَمَر » . ثم علّل ذلك بان « الخيـث » بيت فى تلك المناديل: ويكن فيها للأذى والشر . ومن يكون هذا الخيـث سوى الجراثيم أو المواد الضارة التي تسبب الامراض المختلفة ؟ فسمّاها الشارع بهذا الاسم « الخيـث » كما سماها الطب الحديث « الميكروب » . وقد قال بعض كبار المؤلفين المعاصرين: « ان الطب الحديث أيد باكتشافاته

الأَكيدة صحة قول من قال « النظافة من الإيمان » وبين لنا حكمته والسرَّ فيه . فقد تحققنا الآن أن كثيراً من الأمراض كالكوليرا والجُدري تنشأ عن جراثيم تعلق بالجسم . فلذا أصبح أمرُ النظافة ضرورياً في المنازل التي نسكنها ، والملابس التي نكتسي بها ، والماء الذي نشربه ، والهواء الذي نستنشقهُ » وقد عقدنا في هذا الكتاب فصلاً خاصاً للنظافة والطهارة بحثنا فيه عنها من الوجهة الادبية والاجتماعية . أما البحث في النظافة في هذا الفصل فمن وجهتها الصحية : إذ قد تقرّر في الفن أن النظافة هي مهد الصحة الذي تنام فيه أمانة مطمئة قريرة العين .

ومما جاء في النهي عن غشيان أما كن الأوبئة والطواعين قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونُ بِأَرْضٍ وَانْتَمَ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَاراً مِنْهُ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا ﴾

وكلّ ما عرف السلف عن هذه الأوبئة وسوء تأثيرها في الصحة العامة أنه ناشيء عن فساد في الهواء ، أي عن مواد عفنة تنتشر فيه ، ثم تؤذي من يستنشقها ، فهم كانوا يهجرون ذلك الهواء الفاسد الى الجبال والمنازل حيث الهواء الطلق النظيف ، النقي من تلك المواد العفنة . وقد تبين في الفن الحديث أن هذه المواد العفنة التي تفسد الهواء قد تعلق بالماء أيضاً ففسده وتسبب أمراضاً سارية للذين يشربونه ثم بعد طول البحث والاختبار وجدوا أن المواد المذكورة هي كائنات حية - نباتية أو حيوانية - تنمو وتتكاثر وتتناسل وتنتقل من جسم الى جسم كما هو شأن صغار الحشرات مثل : القمل والبراغيث ، غير أن هذه ترى بالعين المجردة وتلك لا ترى . وليس في تصديق هذا الأمر ومراعاته حسب ارشاد الأطباء ما ينافي ارشاد الشارع بل إن كلاهما

يُحْضَرُ عَلَى النِّظَافَةِ ، وَتُجَنَّبُ الْمَكَانُ الْقَذَرُ ، وَالْهَوَاءُ الْقَذَرُ ، وَالْمَاءُ الْقَذَرُ مِنْ  
حَيْثُ أَمَّا كُلُّهَا تَسَبَّبُ الْأَمْرَاضَ

أَمَّا أَمْرُ الشَّارِعِ لَنَا بِعَدَمِ الْفِرَارِ مِنْ أَرْضِ الطَّاعُونَ فَلَمَّا فِيهِ مِنْ تَضْيِيقِ  
دَائِرَةِ الْمَرَضِ وَحَصْرِهِ فِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ يُمَكِّنُ تَلَافِيهِ فِيهَا ، أَمَّا إِذَا فَرَّ الْمُبْرُوءُونَ  
وَانْتَشَرُوا هُنَا وَهَنَّاكَ فَانْهَمَ قَدْ يَحْمِلُونَ الْوَبَاءَ إِلَى الْجِهَاتِ الْآخَرَى فَيَفْشُو مَكْرُوبَهُ ،  
وَيَسْتَشْرِى فُسَادَهُ وَيَعُودُ يَعْصِرُ تَلَافِيهِ عَلَى الْأَطْبَاءِ وَرِجَالِ الصِّحَّةِ ، وَلَا بَدَّ أَنْ  
يَكُونَ هُنَاكَ فَوَائِدُ أُخْرَى مِنْ مِثْلِ تَهْدِئَةِ قُلُوبِ النَّاسِ : فَلَا يَسْتَوِلَى عَلَيْهِمُ الْوَهْمُ  
وَالْهَلَعُ إِذَا رَأَوْا إِخْوَانَهُمْ يَفْرُونَ فَتُسْتَعَدُّ جُسُومُهُمْ لِقَبْلِ الْمَرَضِ وَعُلُوقُ جِرَائِمِهِ  
بِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ التَّعَاوُنِ الْعَامِ عَلَى اسْتِثْصَالِ الدَّاءِ : فَنَفَى فِرَارَ الْفَارِسِ تَخَاذُلِ  
وَتَوَاقُلِ طَائِفَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ فِي حَالَةٍ هُمْ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ أَحْتِيَاجًا فِيهَا إِلَى  
رَحْمَةِ إِخْوَانِهِمْ وَمُسَاعَدَتِهِمْ ، عَلَى أَنْ مَسَائِلُ حِفْظِ الصِّحَّةِ وَتَسَاوُلِ الْأَدْوِيَةِ  
وَالْعِلَاجَاتِ وَسَائِرِ ضُرُوبِ الْإِحْتِيَاطَاتِ الصَّحِيَّةِ أُمُورٌ دُنْيَوِيَّةٌ مَحْضَةٌ ، وَقَدْ أُرْشَدْنَا  
الشَّارِعَ إِلَى الرُّجُوعِ فِي مِثْلِهَا إِلَى الصَّالِحِينَ مِنْ أَهْلِهَا الْخَبِيرِينَ بِأَسْرَارِهَا ، فَأَصْبَحَ  
مِنْ وَاجِبَاتِنَا الشَّخْصِيَّةِ الْعَمَلُ بِمَا يَشِيرُ بِهِ الطَّبِيبُ الْحَاضِرُ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ . فَلَا  
يَنْبَغِي إِهْمَالُ ذَلِكَ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ ، لَا سِيَّمَا أَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ ﷺ كَانَ يَتَنَاوَلُ  
الدَّوَاءَ ، وَيَأْمُرُ بِتَنَاوُلِهِ ، وَيَشِيرُ عَلَى الْمَرْضَى أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ  
طَبِيبِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِ . وَكَانَ يَقُولُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ وَأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ  
مِنْ الدَّوَاءِ :

﴿ الدَّوَاءُ مِنَ الْقَدَرِ ، وَقَدْ يَنْفَعُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

فَانْظُرْ كَيْفَ نَبَّهَ إِلَى حِفْظِ الْعَقِيدَةِ مَعَ بَيَانِ أَنَّ الدَّوَاءَ سَبَبٌ ، وَأَنَّ الْأَسْبَابَ  
مِنْ جَمَلَةِ الْقَدَرِ الْإِلَهِيِّ الْخَفِيِّ عَنَّا ، وَأَمَّا يَتَجَلَّى لَنَا فِي مَظَاهِرِ نَوَامِيسِ هَذَا الْكُونِ  
وَقَوَائِنِهِ الْعَامَّةِ وَارْتِبَاطِ أَسْبَابِهِ بِمَسَبِّبَاتِهِ : فَهِيَ الَّتِي إِذَا رَاعَيْنَاهَا مَعَ اسْتِبْطَانِ

التوحيد كانت تأثيراتها الظاهرة فينا هي أحكام القدر الذي كان خفياً عنا فما معنى التعلل إذاً بالقدر في ترك هذه الأسباب وإهمالها ، والتعرض للأمراض وأهوالها ؟ ومما قاله صلى الله عليه وآله وسلم في الحث على التداوي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالذَّوَاءَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ﴾

ولا نطيل الاستشهاد على هذا فقد أصبح أمره متعاملاً مشهوراً ، كنهى الشارع ﷺ عن المسكرات كلها ، صيانةً للأمة عن أضرارها وشرورها الاجتماعية والصحية . والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ ﴾

ويشبه هذا ما جاء في الحكيم الاسرائيلية القديمة : « اذا أراد الشيطان أن يدخل مكاناً عسر عليه الوصول اليه - أرسل أمامه الحجرة » وقال بعض الحكماء ليست الخمر سوى مصائب مجمعة في الكؤوس « وقد حضّ الشارع على العناية بالصحة واتخاذ الوسائل الموصلة اليها حتى مالا يخطر بالبال منها : كقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ سَافِرُوا تَصِحُّوا ﴾

فهو يحضّ على السفر لاستفادة الصحة ، فوق ما ينويه المسافر من الفوائد الأخرى : كاللّال والعلم . أما كون السفر مفيداً للصحة فلأنّ المسافر في تنقله وضربه في البلاد كثيراً ما يصادف مكاناً عذياً<sup>(١)</sup> ، ويتنشق هواءً نقياً . ومن أمثال قدماء اليونان « الصحة في الهواء » . والمسافر في تنقله وركوبه ومشيه أحياناً يرتاض جسده ويتحرك عضله ، ولا يخفى ما في ذلك من الفائدة للصحة . ومجمل القول إن مراعاة صحة الجسد ، وحياطته بالأدوية والعلاجات ، من أهم الواجبات ،

(١) المكان (المذي) بالذال المعجمة هو الطبيب الموافق

التي يكلف بها المرء بحكم الشرع والعقل والاختبار ، ومن وفقه الله اليه ، ورزقه صحة حسنة ، ومزاجاً معتدلاً ، كان حائزاً لأعظم ركن من أركان السعادة ، إذ لا سعادة في هذه الحياة من دون صحة بل إن كان شيء فوق الحياة فهو الصحة .

## النظافة والطهارة

ذكرنا في بحث « الصحة والتداوي » ما للنظافة من التأثير البين في صحة الانسان وسلامته من الأمراض ، ونذكر في هذا البحث مبلغ ما للنظافة من التأثير في كرامة الشخص ورفع منزلته في نفوس إخوانه ومعاشريه ، وأحسن ما قيل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَحْسِنُوا لِبَاسِكُمْ ، وَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ ، حَتَّى تَكُونُوا كَأَنْفُسِكُمْ شَامَةً فِي النَّاسِ ﴾

وتحسين « اللباس » كما يشمل جودته ونفاسته يشمل نظافته من الأوساخ والأدران ، والأفان الثوب الديباج اذا كان وسخاً قدراً لا يصح أن يقال عنه انه حسن . أما « الرِّحَال » فالمراد بها المنازل والمساكن : فالشارع يحضننا معشر المسلمين على أن نكون ممتازين عن سائر الطوائف بحسن الثياب ونظافتها ، وحسن المنازل وطهارة غرفها وأفنتيها ، بل وترتيب أدواتها وأمتعتها ، حتى نُصبح في الناس كأننا شامة في الوجه تزيد كمالاً ، وتزينه حسناً وجمالاً . وكانت عرب الجاهلية أيضاً يلبسون الثياب القذرة الوسخة فحضر الله نبيّه في القرآن على مخالفتهم في ذلك فقال تعالى له :

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾

يأمره أن يتطهر ويظهر ثيابه ، وهذا بالطبع تشريع له ولأُمَّته كافة ، فانهم ماداموا مسلمين كان عليهم أن يراعوا هذا الواجب : لأن دينهم مبني عليه

كما جاء صراحةً في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى النِّظَافَةِ ﴾

﴿ النِّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ ﴾

﴿ الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ﴾

وقال بعض علماء الأخلاق المعاصرين « ليس من المروءة ولا الفضيلة في شيء أن يلبسَ الانسان الورسخَ الرثَّ من الثياب ، وأن يعيش في القاذورات ، فان هذا نقص في الكرامة ، وقذارة في الظاهر ، وربما دلت على قذارة في الباطن . فليحذر العاقل من تلطيخ ثيابه ولينتبه للأمر كل الانتباه » وأمرُ الشارع لنا معشرَ المسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرة بعد المرة - اغتسالا ووضوءاً - إنما السرُّ الحقيقي فيه تنبيهنا الى تطهير نفوسنا من الرذائل ، ورديء الأخلاق ، والآفالمسلم الذي يبالغ في تطهير ظاهره من الاردان ، وهو مُعرّض عن تطهير باطنه من خواطر السوء ، وفاسد الطباع ، ومساويء الأخلاق لا يكون في عمله ، ولا تطهير جسده ، مرضياً لله ، ولا مهتدياً الى السرِّ من شرائع الاسلام وآدابه الرائعة ، التي كان متحلياً بها شارعهُ عليه الصلاة والسلام ، كما مر بيانه في بحث « الأخلاق والإيمان » وبحث « الأخلاق والعبادات »

ثم إن النظافة أنواع :

(١) « نظافة الاطراف » وهي واجبة على المسلمين معروفة بينهم بمارسونها

مراراً في اليوم

(٢) « نظافة مجموع الجسد » وقد أوجبها الشارع صلى الله عليه وآله

وسلم بقوله :

﴿ طَهَّرُوا هَذِهِ الْأَجْسَادَ طَهَّرَكُمْ اللَّهُ ﴾

(٣) « نظافة الفم » بمضمضته من الدَّسَم وإزالة ما يعلق بين ثناياه من

الطعام ، وفي الحديث :

﴿ مَضْمُضُوا مِنَ اللَّبَنِ فَإِنَّ لَهُ دَسَمًا ﴾

فاذا أمرنا بتنظيف الفم من أثر اللبن الحليب كنا مأمورين بالعناية بتنظيفه من غيره بالطريق الأولى . وقال صلوات الله عليه أيضا :

﴿ السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِّ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ﴾

والسواك اسم للعود الذي تدلك به الاسنان وتنظف . لكنه غلب على عود الأراك الذي يكثر شجره في الحجاز . والأصل في ذلك تنظيف الفم بأية أداة منظفة يُشير بها طيب الأسنان

﴿ تَخَلَّلُوا فَإِنَّهُ نَظَافَةٌ ، وَالنَّظَافَةُ تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْجَنَّةِ ﴾

ومعنى « تَخَلَّلُوا » استعملوا الخلال وهو العود اللين الرفيع يُدْخَلُ بَيْنَ الشَّيَا فَتَنْظَفُ بِهِ مِمَّا عَلِقَ بِهَا مِنْ آثَارِ الطَّعَامِ

(٤) « نَظَافَةُ الشَّعْرِ » بتسريحه وغسله بالماء والصابون وتليينه بالطيوب والأدهان ولا يضر هذا التكريم في كرامة الشخص وإنما يضر الإغراق فيه ، والتكلف له بأكثر من اللازم الى حد التشبه بالنساء . وجاء في الحديث الشريف :

﴿ إِنْ اتَّخَذْتَ شَعْرًا فَأَكْرَمَهُ ﴾

وأكرامه يكون بما ذكرنا حسبا عُرِفَ من فعله صلوات الله عليه : فقد كان يغسل رأسه الشريف بماء السدر ، وَيُكَثِّرُ دَهْنَهُ ، وَيَسْرِّجُ لِحْيَتَهُ . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِنْ اللَّهَ يُبْغِضُ الْوَسَخَ الشَّعَثَ ﴾

وَالشَّعَثُ : هو الذي يترك شعر رأسه مُغْبِرًا متلبداً . فلا يتعهده بالغسل

والدَّهْن والطيب والتحلاق

(٥) « نظافة الثوب » وحسبك فيها الآية السابقة :

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »

وصفوة القول أن الشريعة الإسلامية ترشد الإنسان الى العناية بنظافة جسمه وثوبه وأثاثه ومسكنه وفنائه وكل ماله تعلّق به ، وأن لا يُرِي من نفسه إلاّ كلّ حسن جميل في العيون ، مقبول محبوب الى القلوب

## العلم والعقل

ان الاسلام دين علم وعقل قبل كل شيء : فهو قبل أن يكلف أتباعه تحصيل أي غرض من أغراض الدنيا يكافهم بأن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم ثاقبي الفكر جيدي البصيرة يتدبرون الامور قبل الشروع فيها ، ويقلّبون وجوه الرأي في مواردها ومصادرها ومبادئها ومصايرها ، فلا تقع الا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب . كما يكافهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح ، وطرق المنافع . واقفين على الحقائق الكونية ، مُلمّين بتفاصيل التجارب العملية التي اهتدى اليها البشر في سابق أدوارهم ، ومختلف أطوارهم ، مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات ، وتقويم الاخلاق والملكت ، واتقان أمر الاحكام والمعاملات ، وترقية شأن الصناعات والتجارات ، وتحسين سائر مقوّمات الحياة

فالقرآن لما دعا الناس الى الاسلام ، وكفهم قبول تعليمه وهدايته كان يقيم « العقل » حكماً بينه وبينهم . ويُعَجِّب من انصرافهم عنه ، وإهمالهم له ، وترك الاهتداء بنوره . فكان يقول وهو يحاجّهم :

﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾  
 ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾  
 ﴿ عِبْرَةٌ لِّأُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾  
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

و « الأَبْصَارِ والأَلْبَابِ » العقول . وقد تكرر « أفلا تعقلون ؟ » في القرآن بضع عشرة مرة في صدّد التوبيخ والتعجيب . وكفى بهذا مزية ومنقبة للعقل منذ جعل للدين أصلاً ، ومصالح الدنيا عماداً . وورد في الحديث الشريف :  
 ﴿ مَا تَمَّ دِينُ إِنْسَانٍ قَطُّ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ ﴾  
 ﴿ دِينُ الْمَرْءِ عَقْلُهُ ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ ﴾  
 وإنما حرم الخمر في الاسلام خشية أن يسطو على العقل فيفسده أو يضعفه .  
 والعقل ملاك سعادة الانسان ، وقوام حياته .  
 أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوّه بمنزلته بما لم يسبقه اليه سابق من الكتب السماوية ، فقد قال تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟

بل إذا تدبرنا أول آيات القرآن نزولاً وجدناها تحض على العلم . وترفع من مكانة العلم وهي قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾  
 ﴿ ن . وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

فقد نوّه في الآيتين بشأن القلم والكتابة ، والعلم والتعلم . هذا الشأن من شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أول ما فاجأ به القرآن البشر المخاطبين ، وأوقعه في أذهانهم . أفلا يكون معنى ذلك أن الاسلام دين علم ، وأنه لا يرضى

للمنتسبين اليه إلا العلم . ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن - عدا كلمة « الله » - تكررت فيه بقدر ما تكررت فيه كلمة « العلم » ، فالاسلام اذاً هو ( دين العلم ) كما أنه ( دين التوحيد )

ولما أراد الله أن يلقي نبياً صلى الله عليه وآله وسلم دعاء يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم مذ قال له :

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

وورد في الحديث الشريف :

﴿ الْعِلْمُ حَيَاةُ الْإِسْلَامِ وَعِمَادُ الدِّينِ ﴾

والعلم اذا أُطلق في لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصل الى سعادتي الدنيا والآخرة : ذلك العلم الذي يتعلق بمصالح البشر مباشرة ، وله الاثر اليبين والنفع الظاهر في إتقان تلك المصالح ، وإحكام أمرها ، وتوثيق عراها . أما العلوم المبنية على الوهم والتدجيل فان الشارع لا يقيم لها وزناً . وكذلك حضّ الشارع على فهم مسائل العلم فهماً صحيحاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كُونُوا لِلْعِلْمِ عُةً ، وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوءَاةً ﴾

أي لا تعتمدوا في العلم على مجرد الرواية والنقل من دون أن تعوه وتحفظوه وتتدبروه ، لتعرفوا طريق المصلحة والمنفعة منه

والعلم لا ينمو في نفس صاحبه إلا بالعمل والممارسة والتطبيق : فإن العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتاً ورسوخاً ويؤدّي الى انكشاف أمور من ذلك العلم كانت مجهولة ، وانفتاح أبواب الى غوامضه وأسراره كانت مسدودة . وهذا الأصل في العلم مما قرّره الاسلام أيضاً في جملة ما قرّر من

الاحكام فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلْمٌ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمٌ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

فالعَمَلُ بالعلم يتسبب عنه - بتيسير الله - علمٌ جديد ، ومعرفةٌ غُضَّةٌ لم تكن  
 حاصلةً من قبلُ . وقال أمير المؤمنين على عليه السلام « كل وعاءٍ يضيق بما جعل  
 فيه الا وعاء العلم فانه يتسع » ووعاء العلم هو العقل ولا جرم أن العقل يتسع وينمو  
 كلما مُدَّ بالعلم وغُذِيَ بمسائله . ومن كلام جعفر الصادق عليه السلام « يهتف  
 العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل » . والمسلمون في زمن سلفهم الصالح كانوا  
 على غير ما هم عليه اليوم من أمر العلم والتعلم ، وحب الاستطلاع ، والحرص  
 على تعرف الحقائق ، من غير لبس ، والجهر بها من دون ماخشية : فلم يكن أحدٌ  
 من الصحابة ولا التابعين يقبل من آخر عالماً إلا إذا عقله وتدبره وفهم السر  
 فيه ، ووجه المصلحة المتأتية عنه ، ويقول لراوي : انظر يا هذا ماذا تقول ،  
 وخف الله واحذر فيما تروي من النقول ، أما في هذه العصور المتأخرة  
 فقد اختلط الخابل بالنايل ، واجترأ الراوي والناقل ، وتراكت على العقول  
 الأبحاث والمسائل ، وصار من مقتضى الورع أن يُذعن المسلم لكل ما تنقله  
 الرواة ، وتتداوله الأفواه ، وإن صادم أحياناً أصلاً من أصول الاسلام ، ولم  
 يقم عليه دليل ولا برهان . وهذه الفوضى العلمية التي خالفنا فيها سلفنا الصالح  
 هي من أكبر أسباب انحطاطنا عنهم ، وانحزالنا عن مثل مواقفهم ، وفقدنا ما كان  
 لهم من عزٍّ وصوله وملك ودولة ، حتى صدق علينا مضمون الآية الكريمة :  
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

ذكر السيد ( أمير علي ) الهندي في كتابه ( تاريخ الاسلام ) انه كان  
 يكتب على مدخل كل مدرسة في الاندلس هذه العبارة : « الدنيا تستند على  
 أربعة أركان : علم الأفاضل ، وعدل الأكابر ، ودعاء الصالحين ، وجلال

الشجعان» وكما حذر الشارع من العلم الوهمي الذي لا ينفع حذر من دُعائه وحماته ، ونبه الناس الى غوائلهم ، ومغبة الانخداع بهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿وَيْلٌ لِّأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ﴾

وعلماء السوء أنواع : الذين يستحلون الحرام ويحرمون الحلال ، ويتخذون العلم حيلة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلة للإضرار بالناس . أو يتعلمون من العلوم أوهاما ينافحون دونها ليستفيدوا من ورائها جاهاً أو حظاً : وغير هؤلاء ممن اتخذ العلم آلة شرٍّ وضرٍّ وإفساد . هؤلاء علماء السوء نعوذ بالله من شؤمهم . أما علماء الحق فهم الذين قال فيهم صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿أَكْرِمُوا الْعُلَمَاءَ : فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ﴾

﴿الْعُلَمَاءُ مَصَابِيحُ الْأَرْضِ ، وَخُلَفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ : يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَإِذَا انْطَمَسَتْ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تُضِلَّ الْهُدَاةُ﴾  
﴿خَيْرُ سُلَيْمَانَ بَيْنَ الْمَالِ وَالْمُلْكِ وَالْعِلْمِ ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ ، فَأَعْطَى الْمَلِكُ وَالْمَالُ لاختياره العلم﴾

﴿أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النَّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ﴾

﴿يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ﴾

وهالك طائفة من الأحاديث التي تمحض على طلب العلم وتبين مزايا طلابه وأنه لاخير فيمن عداهم :

﴿إِسْكَلْ شَيْءَ طَرِيقٍ ، وَطَرِيقُ الْجَنَّةِ الْعِلْمُ﴾

﴿النَّاسُ رُجُلَانِ : عَالِمٌ وَمَتَعَلِّمٌ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَا سِوَاهُمَا﴾

﴿ مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلِيهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلِيهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلِيهِ بِالْعِلْمِ ﴾ .

﴿ أُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصَّيْنِ . ﴾

﴿ إِذَا جَاءَ الْمَوْتُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْمَالَةِ مَاتَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

ومن الأحاديث الواردة في آداب طلب العلم قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ حُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ ﴾

أَيُّ إِنْ مَنْ رُزِقَ مَقْدَرَةً عَلَى إِفْرَاقِ سُؤَالِهِ فِي قَالِبٍ سَهْلٍ يَبْحِثُ يَفْهَمُهُ

أَسْتَاذُهُ الْمُسْتَوَّلُ بِسُرْعَةٍ كَانَ ذَلِكَ مُسَاعِدًا عَلَى تَحْصِيلِهِ عَالِمًا جَمًّا

﴿ تَنَاصَحُوا فِي الْعِلْمِ ، وَلَا يَكُنْكُمْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا : فَإِنْ خِيَانَةً فِي الْعِلْمِ أَشَدُّ

مِنْ خِيَانَةٍ فِي الْمَالِ ﴾

أَيُّ كَمَا لَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَخُونَنَّ مَنْ ائْتَمَنَكَ عَلَى مَالِهِ فَتَكْتُمَ مِنْهُ شَيْئًا كَذَلِكَ

أَنْتَ مُؤْتَمِنٌ عَلَى مَالِ دِيكَ مِنَ الْعِلْمِ : فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكْتُمَ مِنْهُ شَيْئًا عَنِ السَّائِلِينَ ،

فَكَلَا الْكُتْمَانَيْنِ خِيَانَةٌ .

﴿ تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ الْعِلْمَ ، وَتَوَاضَعُوا لِمَنْ تَعْلَمُونَهُ الْعِلْمَ . وَلَا

تَكُونُوا جَبَابِرَةً الْعُلَمَاءِ ﴾

أَيُّ إِذَا لَاقَ الْكَبِيرَ وَالْعُجْبَ بِالْجَبَابِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِأَهْلِ الْعِلْمِ وَإِنَّمَا عَلَى

الطَّالِبِ أَنْ يَتَوَاضَعَ لِأَسْتَاذِهِ تَوَاضَعُ إِجْلَالٍ وَاحْتِرَامٍ ، وَعَلَى الْأَسْتَاذِ أَنْ يَتَوَاضَعَ

لِتَلْمِيزِهِ تَوَاضَعُ رَفَقٍ وَرَحْمَةٍ وَتَأْنِيسٍ

﴿ الْحِكْمَةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَتَرْفَعُ الْمَمْلُوكَ حَتَّى تَجْلِسَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ ﴾

﴿ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ : أَيْنَمَا وَجَدَهَا اتَّقَطَّهَا ﴾

﴿ خُذِ الْحِكْمَةَ : لَا يَضُرُّكَ مِنْ أَيِّ وِعَاءٍ خَرَجَتْ ﴾

يَعْنَى لَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَكَبَّرَ فَلَا يَطْلُبُ عِلْمًا إِلَّا مِنَ الْعُلَمَاءِ أَرْبَابِ

المظاهر ونحوهم ، بل عليه أن يلتقط لؤلؤه الرطب من أي مكان ويتناول زلاله العذب من أي ينبوع كان . والمراد بالحسكة في هذه الأحاديث العلم النافع .  
ومما أثر عن الحكماء في الحض على طلب العلم وقد اشتهر بين الناس أنه من كلام النبوة قولهم « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

(العقل) \* أما وقد استوفينا الكلام على الأحاديث الواردة في العلم والتعلم فلنأت على ذكر أحاديث العقل ، وماورد فيه من المزية والفضل . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل ﴾  
﴿ ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى ﴾

﴿ لكل شيء دِعامَةٌ : ودِعامَةُ عمل المرء عقله : فبقدر عقله تكون عبادته لربه . أما سمعتم قول الفجار : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾  
وروى أنس رضي الله عنه قال : أتني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير فقال لهم : كيف عقله ؟ فقالوا : يا رسول الله ان من عبادته . . . ان من خلقه . . . ان من فضله . . . ان من أدبه . . . فقال كيف عقله ؟ قالوا يا رسول الله تُثني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسالنا عن عقله ؟ فقال رسول الله :

﴿ إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر . وإنما يرتفع الناس في درجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم ﴾  
﴿ أفلح من رزق لباً ﴾

و « اللب » العقل أي ان العاقل يكون مصيره النجح والفلاح في معظم أعماله ، وأعم أحواله

﴿ ليس الأعمى من يعمى بصره إنما الأعمى من تعمى بصيرته ﴾

و « البصيرة » العقل

﴿ كاذب الحليم أن يكون نبياً ﴾

﴿ الحليم سيد في الدنيا سيد في الآخرة ﴾

و « الحليم » العاقل الوقور

ومن آيات وفور العقل في الانسان — كما ورد في بعض الاحاديث — :  
تدبر العواقب . والأخذ بالحزم في كل الامور . وترك الاماني .  
والتعلات الفارغة . والتودد الى الناس . ومداراتهم . والحياء . وحسن الخلق .  
وصدق الفراسة . ومخالفة هوى النفس . والاعتبار بحوادث الزمان \* وقيل لعل  
عليه السلام صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه . فقيل : صف  
لنا الجاهل قال : قد فعلت

## الصبر والشجاعة

هما من الواجبات الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتذرع بها ويروض نفسه  
عليها منذ زمن الحداثة . والصبر في أصل معناه اللغوي الحبس . وهو باعتبار  
متعلقة يتقسم الى ثلاثة أقسام : ( الصبر عن . . . ) و ( الصبر على . . . )  
و ( الصبر في . . . ) :

( فالاول ) حبس النفس وردعها عن فعل السوء والشر ودواعي الهوى  
والشهوة وكل ما يمس كرامة الانسان ويشوه سمعته

و ( الثاني ) أن يحبس نفسه ويوطنها على المكروه والألم وتحمل الرزيا  
والمصائب وكل ما يقلق الراحة وينغص العيش . ومن ذلك الصبر على ما يفوت  
الانسان من المآرب والحظوظ الدنيوية

و( الثالث ) أن يحبس نفسه ويمنعها عن التفتقر في مواطن الخوف والذعر بل في مواطن الخطر أحياناً، وذلك دفاعاً عن حق ، أو حماية لمصلحة ، أو وقاية لعرض وشرف . وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والاقدام . فالشجاعة مما يشمله الصبر بدليل قوله تعالى في صفة طائفة من الابرار :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾

( فالْبَأْسَاءُ والضَّرَاءُ ) الضيق والفقر والمرض ، و( الْبَأْسُ ) الحرب : فهؤلاء الابرار كانوا يصبرون لدى المصائب والآلام والكروب ، كما يصبرون في المخاوف واشتداد هول الحروب .

وقال بعض الحكماء « ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب ، لأن هذا تشاركه فيه الدابة . ولكن أن يكون للنفس غلواً ، وللخطوب تحملاً ، ولجأته عند الحفاظ مرتبطاً » أي مالكاً نفسه عند الغضب

وهذا الخلق ( أغنى الصبر والشجاعة ) من دعائم الاسلام ومن أخص الصفات التي يجب أن يتخلق بها المسلم . وإذا أردنا أن نعزو نجاح الاسلام وظهور أمره وانتشار كلمته في العالم الى خلق من الاخلاق وجب أن يكون هذا الخلق هو خلق ( الصبر والشجاعة ) اللذين كَشَبَعَتَ بهما نفوس سلفنا الصالح ، وأبطالنا الاقدمين . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « خمس خدوها عنى : ألا لا يَرْجُونَ أَحَدًا إِلَّا رَبَّهُ . ولا يخافن إلا ذنبه . ولا يستنكفن أن يتعلم ما ليس عنده . وإذا سُئِلَ عما لا يعلم فليقل لا أعلم . والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » هـ . وقال أيضاً : « لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان »

وإن أعز شعوب هذا العصر ، وأرفعها شأنًا ، وأوسعها سلطانًا ، هو

الشعب الذي عُرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الاخطار ، وَلَدَى اشتداد الاهیوال: فهو يُعِدُّ للأمور عدَّتھا ، ویهیی لها أسبابھا ووسائلھا. ثم یصبر صبراً بعد صبر حتی یحین الوقت ، وینضج الامر . واذ ذاك یجنى ثمرتہ ، ویحتجن فائدته . هذا الخلق یصح أن نسمیه (الخلق القرآنی ) لكثرة ما ذكر فی القرآن من التثویه به ، والحض علیه ، فی أكثر من سبعین آیه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ واصبرْ على ما أصابك : إنَّ ذلك من عزمِ الأمور ﴾

ومعنى كون الصبر من عزم الأمور انه مما يتأكد طلبه وتتحتم على الشخص ممارسته من أمور الأخلاق . لان هذا معنى العزم في اللغة . ویكون ذلك شاهداً على صحة اطلاق كلمة « الواجبات الشخصية » على الاخلاق ، والسجایا النفسية . وقوله تعالى :

﴿ وان تصبروا خیرٌ لكم ﴾

﴿ ان الله مع الصابرين ﴾

﴿ وجعلنا منهم أئمةً یهدون بأمرنا لما صبروا ﴾

أى انما كان أولئك القوم من المفاحین ، والأئمة المهتدين الهادين ، لانهم كانوا متصفین بالصبر في عامة أحوالهم . وقال تعالى :

﴿ كانوا من قبلنا مرقصين ﴾

أى انه تعالى یعجبه من أولئك المدافعين عن الحق أن یكونوا فی موقف دفاعهم متساندين متلازمين بما وطَّئوا نفوسهم علیه من الصبر والثبات حتی یصبحوا كالبنیان الذي تراصت أحجاره ، وتماسكت جنادله .

وأحادیث الصبر والشجاعة كثيرة منها قوله صلى الله علیه وآله وسلم - یبین مكانة الصبر ، ومنزلته من سائر آداب الاسلام - :

﴿ الصبر من الأیمان بمنزلة الرأس من الجسد ﴾

﴿ الصبرُ سترٌ من الكروب ، وعونٌ على الخطوب ﴾

﴿ إن الله يحبُّ الشجاعةَ ولو على قتلِ حية ﴾

أي يجب الصبر في مواقف درء الأخطار والإقدام على دفع أذى كل مؤذ حتى ما كان قليل الشأن كالحية . فكيف ترى الشارع الاسلامي يحب شجاعة الشجاع في المواطن العظام كما إذا كان يدافع عن حق مقدس عام ينتج عن الجبن فيه ، والنكوص عنه ، ضياع أمة برمتها مثلاً  
﴿ آفةُ الشجاعةِ البغي ﴾

يحذّر في هذا الحديث الشجاع من استعمال شجاعته وجلادته في الشر والفساد فيبغى على غيره أو يبخسه حقاً من حقوقه  
﴿ الصبرُ عندَ الصدمةِ الأولى ﴾

في هذا الحديث أيضاً تنبيه للشجاع أو كل من كان في حالة تستدعي ثبات القلب والصبر أن يوطن نفسه ويُنْعَش فيها خلق الصبر واشتبات لأوّل مفاجأة العدو أو الكارثة أو البلاء ، حتى إذا تيسّر له الصبر في ذلك الوقت واستمرّ عليه لا يلبث حتى يُلقَى في نفس خصمه أو مؤذيه الهيبة والاكبار . وربما اضطره بصبره هذا الى الهزيمة والفرار . أما إذا لم يصبر لدى الصدمة الأولى واستسلم للخوف والجزع أطمع خصمه فيه وجراً أه عليه . ثم صعب عليه بعد ذلك أن يرجع الى قوّته ويملك عنان نحيبته ( نفسه )

وقد اتفقت كلمة أهل الأدب على أن أبلغ ما قيل في الحُص على الصبر والشجاعة قول قطري بن الفجاءة البطل العربي المشهور :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعي (١)

(١) الضمير في ( لها ) يرجع الى النفس ( طارت شعاعاً ) كناية عن انتشار النفس وتفرقها ههنا بحيث لا يعود يمكنها أن تستجمع قوتها

فأنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعي  
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمُستطاع  
ولا ثوب البقاء بثوب عزٍّ فيطوى عن أخى الخنع اليراع<sup>(١)</sup>  
سبيلُ الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الأرض داعي<sup>(٢)</sup>  
ومن لم يُعتَبَطْ يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع<sup>(٣)</sup>  
وما للمرء خير من حياة إذا ما عُدَّ من سقط المتاع<sup>(٤)</sup>  
وكان الشاعر الافرنسي عقد هذا المعنى الذي قاله شاعرنا العربي فقال  
ما ترجمته :

« اذا خسر المرء كل شيء »

« ولم يعد له أمل في استرجاع ما فقد »

« كانت حياته عاراً عليه »

« وأصبح الموت أحد واجباته »

بقى أمرٌ جدير بالذكر : وهو أنه يشترط في النوع الثاني من أنواع الصبر  
الذي سميناه « الصبر على الآلام والمصائب والكوارث » شرطاً لا بد من  
مراعاته وتحقيقه : ذلك ان المصائب والمكاره التي تنزل بالشخص قسمان :  
قسم لا يكون فيه حيلة ، ولا لدرته وسيلة ، كما إذا مات للشخص ابن أو أخ عزيز

(١) « الخنع » الذل : و « اليراع » الجبان . ومعنى البيت أن ثوب البقاء وطول الحياة لو كان  
ثوب عز وشرف لطوى وأبعد عن الدليل الجبان فلم يلبسه . لكننا لما رأينا قد لبسه وتباهى  
به علمنا أنه ليس بثوب عز ولا فخار

(٢) الآلام في قوله « لأهل الأرض » متعلق بداعي في آخر البيت أي ان دامي الموت  
يدعو أهل الأرض كلهم ولا يستثنى منهم أحداً

(٣) « ومن لم يعتبط » أي ومن لم يمت شاباً صحيحاً مات بعد هرم وسأم من الحياة .  
فالمرء واقع على كل حال

(٤) « سقط المتاع » رديئه وما لا قيمة له منه : أي اذا علم المرء انه سيعبى ذليلاً في  
هذه الدنيا لم يعد يبقى لحياته معنى ، ولم يعد له فيها خير وفائدة

أو عَمِيَ أو إيفَ بعض أعضائه <sup>(١)</sup> فالصبر الجليل إذ ذاك على المصيبة أمر محمود  
( الدهرُ لا يبقى على حالةٍ لا بد أن يُقبلَ أو يُدبراً )  
( فان تلقاك بمكروهه فاصبر فان الدهر لن يصبراً )

والقسم الآخر أن ينزل بالشخص نازلة أو مصيبة يكون له حيلة في تفريجها  
أو وسيلة في تخفيفها . فالصبر على هذا المكروه محمود أيضاً : لكن يشترط مع  
هذا الصبر الاجتهاد والعمل على اتخاذ السبب والوسيلة في دفعه ، والتخلّص منه .  
أما الاستسلام الى المكروه ، والصبر على المصيبة ، وانتقاعه عن دفعها بالطرق  
والوسائل المشروعة الداخلة تحت الطاقة فليس ممّا يرضاه الشرع ولا العقل لنا ،  
ولا يكون الصبر عليه صبراً محموداً ، ولا خلقاً مشهوراً :

ينزل بالمرء فقر أو ضائقة وله عيال يتضورون جوعاً وأسباب الرزق مهمّدة  
بين يديه فيعرض عنها ويقول : انه صابر وان الصبر مفتاح الفرج  
يُصاب المرء بمرض مؤلم ويكون له علاج أو دواء ناجع أو مخفّف باذن الله  
فيتقاعد المريض عن تناول ذلك العلاج ويقول عن نفسه انه صابر وان الصبر  
سلاح المؤمن .

يعتدي مُعتدٍ عليك . أو يعتصب بعض حقك ويكون في مكنتك كفّ أذاه  
بإحدى الطرق والوسائل لكك لا تفعل بل تذلّ وتخضع وتدعي أنك صابر  
وأن الله مع الصابرين ، في نظير ذلك من أحوال الناس وأطوارهم التي تتكرّر  
مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت الى آخر . وكلّ هذا لا يقال انه من  
الصبر المحمود ، ولا ينبغي أن يُقرّظ صاحبه عليه . وإن استنكار ذلك وبعده  
عن الأخلاق ومنافاته للواجبات الشخصية - أمرٌ ظاهر لا يحتاج الى استدلال  
بل يكاد يكون الشعور باستنكاره من الوجدانات الطبيعية وكثيراً ما سُمّي هذا

الصبر الممقوت باسم « التوكل » واشتبه به: فتذلل أمة أمة وتدوس حقوقها ثم يقال للامة المستذلة « اصبري وتوكلِي، إن الله مع الصابرين والله يحب المتوكلين » وهذا في الحقيقة خداع وتغريب، وإن صبر هذه الامة وتوكلها - اذا تظاهرت بالصبر والتوكل - ليسا من الصبر والتوكل الاسلاميين في شيء ما دام في طاقتها الاستعداد واتخاذ الأسباب لدفع الشر، واسترداد الحق، والاحتفاظ بالكرامة. وقد مني المسلمون في أخريات أيامهم بشيء من هذا الصبر والتوكل الممقوتين بحيث التبس أمرهما عليهم أو لبسوه على أنفسهم بالصبر والتوكل الشرعيين وليس المقام بمتمسح للافاضة في هذا البحث بأكثر مما ذكرنا، ولا للاستشهاد عليه من النصوص الشرعية وأعمال النبي ﷺ والصحابه والتابعين بأكثر مما أشرنا. وإنما نكتفي ببیت من الشعر قاله تابعي جليل من أصحاب سيدنا علي رضي الله عنه - وهو أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو - وهو قوله :

إذا كنت معنياً بامرٍ تريده فما للمضياء والتوكل من مثل  
يقول اذا كان يهملك قضاء أمر من الامور فلا طريقة للوصول اليه أحسن  
من المضياء والتوكل ، والمضياء النشاط وصدق العزيمة في طلب الأمر  
فانظر كيف قرن التوكل وهو الاعتماد على الله بالمضياء والجِد فيكون التوكل  
في اعتبار سلفنا الصالح هو ما اقترن بالسعى والعمل ، لا بالتقاعد والكسل .  
وفي هذا الآن بلاغ ، وربما عدنا الى بحث التوكل في مناسبة اخرى

## الغضب والاعتدال

من أهم الواجبات التي يجب على المرء ممارستها والتخلق بها ، تطهير النفس  
من خلق الغضب وبوادر الحدة . وان من يتساهل في ذلك ويدع هذا الخلق  
الذميم يستولى عليه كان كمن ترك الثعبان ينساب في جنبات داره ، أو وضع

برميل البارود على مقربة من سريره نومه : فهو في كل وقت معرض للخطر والوقوع في الهلكة ، وقد أشار القرآن الحكيم الى ان الغضب من اخلاق الكافرين وسماه « الحية الجاهلية » ، وجعل الرفق والاعتدال من خصال المؤمنين وسماه « السكينة » فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

ومن أحسن ماورد في السنة النبوية من النهي عن الغضب أن رجلاً قال : « يا رسول الله : مرني بعمل وأقلل » طَلَبَ أَنْ يَأْمُرَهُ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ السَّكَاتَةِ يُفَهِّمُ بِسَهْوَةٍ ، وَيُمَارِسُ بِسَهْوَةٍ . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لَا تَغْضَبْ ﴾

فأعاد عليه الرجل السؤال مراراً والنبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة يجيبه بقوله « لا تغضب » فهو كأنه يقول له : اضمن لي من نفسك ترك الغضب وأنا اضمن لك كل خير

واعلم أن الغضب يفقد المرء عقله ، ويملك عليه رشده . فلا يعود يهتدي الى وجه الحق في الاعمال والأقوال ، ثم لا يلبث حتى يتورط في الشر والوبال . وإن تأثير الغضب وتأثيره في نفس الشخص وفي أعماله ومصالحه يشبه من كل الوجوه تأثير الخمر والمسكرات . وكما قالوا في الحرة « إنها مفتاح كل شر » قالوا هذا القول نفسه في الغضب « انه مفتاح كل شر » فكل منهما غول العقل ، وآفة الفضل . قال علي عليه السلام « الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فإن لم يندم فجنونه مستحکم » وكم في الناس من ذي مواهب عالية ، ومراتب في الذكاء والنبوغ سامية ، لم يقدر أن يملك عنان غضبه ويسكن من حدة مزاجه . فكان ذلك مُسْقَطاً لِحُرْمَتِهِ ، مَقْلَباً فِي النُفُوسِ مِنْ قِيَمَتِهِ . وكثيراً ما حال خاتمه هذا

بين الناس وبين الإِطافة به ، والانتفاع بعلمه ومواهبه بل طالما . هُدمَ بحدّته ،  
ما كان بناء من الاعمال والمشاريع بنير فطنته .  
ومن الأحاديث الواردة في ذمّ الغضب ، ومدح الرفق والاعتدال ، قوله  
صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لَا تَغْضَبُ وَلَكَ الْجَنَّةُ ﴾

﴿ أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَشَدِّكُمْ ؟ أَمْلَسَكُمْ لِنَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ ﴾  
﴿ أَشَدُّكُمْ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ . وَأَحْلَمَكُمْ مَنْ عَفَا بَعْدَ  
الْمَقْدِرَةِ ﴾

ويعنى بقوله ( أشدكم ) أقواكم وأقدركم على الغلبة . والعفو بعد المقدرة  
من أكبر علامات الرفق والاعتدال ، وامتنالك نزوات النفس وبوادر الغضب .  
وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَجِبَتْ مَحَبَّةُ اللَّهِ لِمَنْ غَضِبَ فَحَلِمَ ﴾

﴿ مَنْ يَغْفِرِ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ . وَمَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللَّهُ عَنْهُ . وَمَنْ يَكْظِمِ  
الْغَيْظَ يَأْجِرْهُ اللَّهُ ﴾

﴿ مَنْ يَكْظِمُ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِنْفَاقِهِ مَا اللَّهُ قَلْبُهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا ﴾

و « كَظَمُ الْغَيْظِ » كناية عن كَفِّ الْغَضَبِ وإطفاء جمرته

﴿ إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تَوْقَدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ : فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ

شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلَا رُضَا لِرُضَى الْأَرْضِ ﴾

في هذين الحديثين وصف لما به يسكن الغضب . وذلك بأن يشتغل

الغضبان بما يصرفه عن التفكير فيما كان سبباً لإثارة غضبه : فيسكت بتأتاً أو  
يهمض عن جلوس ، أو يجلس عن قيام ، أو يتوضأ بالماء البارد ، أو يياشر غير

ذلك الى مما يُنسيه غَضَبُهُ وَيُرجعه الى حالة السكينة والاعتدال. وقال بعض الحكماء  
«لا تدع عزّة الغضب تصير بك الى ذلّة الاعتذار» يعنى أن الغضبان المسترسل  
في غضبه قد يشعرُ في نفسه بشيء من العزة واتعالى غير أن هذه العزّة الحمقاء  
تؤول أحياناً كثيرة الى الندم على ما كان فرط منه ، فيضطرُّ الى الاعتذار ،  
وطلب العفو . وكفى بهذا ذلّةً ومهانة . وقال آخر « الغضب على من لا تملك  
عجز ، وعلى من تملك لؤم » والمعنى أنك اذا غضبت على شخص لا تملك القدرة  
عليه ولا البطش به كان غضبك عجزاً لا فائدة منه ، ولا تأثير له . واذا غضبت  
على شخص هو في قبضة يدك ، وتحت سلطتك ، فمثل هذا يحتاج الى عطفك  
ورحمتك . فاذا غضب عليه ، ونلت منه كان عمالك لؤماً ودناءة : اذ ليس من  
الكرم عقوبة من لم يجد امتناعاً من السطوة

بقيت ملاحظة جديرة بالتدبر : ذلك أننا اذا نهيناك عن أن تضع باروداً في  
غرفة نومك ليس معناه أن لا يكون عندك بارود تضعه حيث تأمن عليه الانفجار  
وخراب الديار . وتدخره لوقت الحاجة التي اخترع البارود من أجلها . وهكذا  
غضبك ينبغي أن تكظمه فلا تغضب على أحد من أجل سفاسف الأمور ومحقراتها .  
وفي أحوال لا معنى للغضب فيها . بل تكون مما يسهل تسويته بالرفق واللين والحسنى .  
أما اذا رأيت أمامك جريمة تُقَرَف ، أو ظلماً يُرتكب ، أو عرضاً ينتهك ، أو  
كرامة تتمن ، أو حقاً يُداس ، أو عهداً يُخاس ، فإنه اذ ذاك لا يكون معنى  
للرفق واللين ، ولا يكون كف الغضب من أخلاق الأنبياء والمرسلين . بل  
بالعكس يجب الغضب في وجوه الظالمين المعتدين . والشدة والغلظة على  
الآثمين الجاهلين

« ولاخير في حلم اذا لم تكن له بواذر تحمي صفوه أن يكدر »  
ويسمى الغضب الشريف اذ ذاك شجاعة أدبية وأنفة وحمية .

## الصدق والكذب

نسبةُ الصدق والكذب الى حياة الشخص وقيمته الأدبية في هذا الوجود .  
كنسبة الأساس الى القصر المشيد فوقه : فإذا كان الأساس محكم الوضع ، متين الصنع استمر البناء الى ما شاء الله وأمينه أصحابه : فسكنوا فيه وأووا الى ظله ، وإلا حذروا منه ، وأوصى بعضهم بعضاً بالابتعاد عنه . ثم لا يلبث أن ينهار ، وتعفو منه الآثار . وهكذا المرء إذا اعتاد الصدق في أقواله وأفعاله أحبه الناس ووثقوا به ، واثمنوه في المعاملة والمعاقدة ، وكان عضواً عاملاً في خدمة قومه ووطنه . وإذا عُرفَ منه الكذب زهدوا فيه ، وملوا مجلسه ، وشكوا في كل قول يصدر منه . كما يرتابون في كل عمل يُزْمَعُ أو يدعوا اليه . ثم يُصبح في المجتمع كالعضو الأشلّ لا يُنتفع به ، ولا يُعتمد عليه . فعلى الصدق والكذب يؤسس مستقبل المرء ومركزه الشخصي . وبمقياسهما تحدّد درجة اعتباره ونجاحه في هذا الوجود . فلا غرو إذاً أن يستمسك العاقل بعروة الصدق ولو أدّى به الى الضرر ، أو وقف معه موقف الخطر . كما يتجنّب الكذب ، ولا ينخدع بزخرف عاجله ، ونشوة باطله . . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تَحَرَّوْا الصِّدْقَ : وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ الْهَلَكَةَ فَإِنَّ فِيهِ النِّجَاةَ . وَتَجَنَّبُوا الْكُذْبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ النِّجَاةَ فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ ﴾

وقد شدّد الاسلام في النهي عن الكذب ، وتغيير الكاذبين . والحض على الصدق وتقرّيط الصادقين في غير ما آيةٍ وحديث من آياته وأحاديثه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

أي إنما عذبوا ذلك العذاب القاسي بما كان منهم من الكذب والافتراء .  
وقال تعالى على لسان طائفة من الابرار يَبْرَأُونَ الى الله من أن يكونوا  
ارتكبوا ما نسب اليهم من الكذب :

﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا . سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾  
ويروى أن قائلًا قال : يا رسول الله أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال « نعم » .  
قال أفيكون بخيلًا قال « نعم » . قيل : أفيكون كذابًا ؟ قال « لا » فانظر كيف جعل  
الكذب لا يجتمع مع الإيمان أبدًا . ويشبهه هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :  
﴿ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ ﴾  
﴿ لَا تَجْتَمِعُ خَصَائِمَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكَذِبُ ﴾  
﴿ آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا  
أَتَمَّنْ خَانَ ﴾

﴿ كَبُرَتْ خِيَانَةُ أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ الْكَذِبُ بِهِ مُصَدِّقٌ وَكُنْتَ لَهُ  
بِهِ كَاذِبٌ ﴾  
﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ . وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ  
مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ ﴾

﴿ أَعْظَمُ الْخَطَايَا اللِّسَانُ الْكَذُوبُ ﴾  
﴿ أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَى أَصْدَقَةٍ ﴾  
﴿ وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ ،  
وَيْلٌ لَهُ ﴾

﴿ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ : فَإِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ فِي الْجِدِّ وَلَا الْهَزْلِ .  
وَلَا يَعْدِرُ الرَّجُلُ صَبِيحَةً ثُمَّ لَا يَفِي لَهُ ﴾  
﴿ نَهَاكَ الشَّارِعَ عَنِ الْكَذِبِ مُطْلَقًا حَتَّى مَعَ طِفْلِكَ الصَّغِيرِ فَهُوَ لَمْ يَجُوزْ لَكَ أَنْ

تَعِدُّهُ بِشَيْءٍ ثُمَّ تَخْلُفُ . فَإِنَّكَ تَدْرِبُهُ عَلَى الْكَذِبِ مِنْ جِهَةٍ ، وَتَفْتَحُ عَلَى  
 نَفْسِكَ بَابَ تَعَبٍ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ : فَإِنْ حَاجَاتُ الصَّغِيرِ لَا تَنْفَدُ وَتَكْلِفُهُ لَكَ  
 لَا يَنْقُطِعُ . فَإِذَا كَذَبْتَ عَلَيْهِ مَرَّةً لَمْ يَعُدْ يَصَدِّقُكَ . فَهُوَ يُلِحُّ عَلَيْكَ بِطَلْبِ حَاجَاتِهِ .  
 وَكَلِمَا وَعْدَتِهِ شَكٌّ فِي وَعْدِكَ وَكَرَّرَ الطَّالِبُ وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْكَ إِلَى مَا لَا نِهَایَةَ .  
 ( كَذَبْتُ وَمَنْ يَكْذِبُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ إِذَا مَا أَتَى بِالْصِّدْقِ أَنْ لَا يُصَدَّقَا )  
 وَيُرْوَى أَنَّ لَيْلَى بِنْتَ أَبِي خَيْثَمَةَ نَادَتْ ابْنَهَا الصَّغِيرَ قَائِلَةً « يَا عَبْدَ اللَّهِ !  
 تَعَالَ هَاكَ » فَقَالَ لَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَمَا تَعْطِيتَنِي » قَالَتْ « تَمْرًا » فَقَالَ :  
 ﴿ أَمَّا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَعْطِيتِ كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذِبَةٌ ﴾

وَإِنْ مَانَصَحَ لَنَا بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْكَذِبِ عَلَى الصَّغِيرِ  
 ( وَمِثْلُهُ الْمَرْأَةُ ) هُوَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ فِي رَاحَةِ الْبَيْتِ وَنِظَامِ الْعَائِلَةِ . وَإِنْ الْمَرْأَةُ أَرْفَعُ  
 شَأْنًا مِنْ أَنْ يُكْذِبَ عَلَيْهَا وَيُنْظَرَ إِلَيْهَا كَالطِّفْلِ الصَّغِيرِ . وَهِيَ مُتَأَهِّلَةٌ إِذَا اعْتُنِيَ  
 بِتَرْبِيَتِهَا أَنْ تَبْلُغَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَالْقِيَامِ بِالْوَاجِبَاتِ الشَّخْصِيَّةِ  
 وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ مَعًا . عَلَى أَنَّ رَبَّةَ الْبَيْتِ وَالطِّفْلَ وَالْخَادِمَ إِذَا آنَسُوا مِنْ رَبِّ الْبَيْتِ  
 كَذِبًا وَخَدَاعًا جَارَوْهُ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ ، وَغَنَوْا بِإِبْشَاعِ الْأَنْعَامِ عَلَى هَذَا الْمِزْمَارِ .  
 وَلَا شَيْءَ يَضْمَنُ الرَّاحَةَ وَالْهُدُوءَ فِي الْعَائِلَةِ مِثْلَ أَنْ يَجْعَلَ رَبُّهَا عِمَادَ مَعَامِلَتِهِ لِأَفْرَادِ  
 أُسْرَتِهِ الصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ وَتَحَرِّيَ الْحَقِّ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ . فَإِنَّ الْأُمُورَ بَيْنَهُمْ  
 إِذَا ذَاكَ تَمَشَّى عَلَى السَّدَادِ ، وَيَتَقَلَّصُ مِنَ الْبَيْتِ ظِلُّ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ . وَجَوَّزَ  
 بَعْضُهُمُ الْكَذِبَ فِي الْحَرْبِ لِأَنَّ الْحَرْبَ كَمَا وَرَدَ خُدْعَةٌ . غَيْرَ أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّوْرِيَّةَ  
 وَالتَّعْرِیْضَ فِي ذَلِكَ وَتَجَنُّبَ الْكَذِبِ الصَّرِيحِ . وَمِثْلُهُ الْكَذِبُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ  
 الْإِنْسَانِ ، بَيْنَ الْأَخْوِيَّةِ أَوِ الصَّدِيقِيَّةِ : اسْتَحْسِنُوا ذَلِكَ مَعَ مَرَاعَاةِ التَّوْرِيَّةِ وَالتَّعْرِیْضِ  
 فِي الْقَوْلِ وَالنَّقْلِ . وَیَدْخُلُ فِي بَحْثِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ ، وَالنَّكْتُ  
 بِهِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَكُونُونَ فِي الْأَخْبَارِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْآخِرِينَ

في المواعيد الآتية . وجميع ما وردَ في القرآن والحديث مما يتعلق بالصدق والكذب حضاً ونهياً ينطبق على الوفاء والخلف ويشملهما : فإنها كلها تتشعب من أصل واحد ، وتنتهي الى أثر واحد . قال الجاحظ : « الصدقُ والوفاءُ توأمان ، وفيهما صلاحُ الدين والدنيا . والكذب والغدر توأمان ، وهما سبب كل تفرقة وفساد » وانظر في الحديث السابق كيف نهى عليه السلام عن الكذب وأتبعه بقوله :

﴿ وَلَا يَعِدُ الرَّجُلُ صَبِيَّهُ ثُمَّ لَا يَفِي لَهُ ﴾

فجعل الوعد والوفاء من شعب الصدق أو من أنواطه ومن أحسن أبيات الحكم في الحض على الوفاء بالوعد والاحتياط في أمره قول أبي الأسود الدؤلي رضي الله عنه وهو :

( واذا وعدتُ الوعدَ كنتُ كغارمٍ ديناً أقرُّ به وأحضر كاتباً )

( حتى أنفذه على ما قلته وكفى عليَّ به لنفسي طالباً )

( واذا منعتُ منعتُ منعاً يلبس وأرحتُ من طول العناء الصاحباً )

يقول إنه إذا وعد آخر التزم وعده واكده على نفسه كما يلتزم المديون

أداء دينه بالإقرار به ، وتسجيله في صك عن يد كاتب حتى ينفذه في أجله

المعلوم . وأنه هو لا يحتاج الى من يذكره بالوعد ، ولزوم الوفاء به فإن نفسه

هي الكفيلة بذلك . ثم إنه إذا أحسن من نفسه العجز عن الوفاء لصاحبه بالوعد

الذي وعده بين له من أول وهلة أنه غير قادر على الوفاء والإنجار ويكون بذلك

قد أراح صاحبه من التعب والعناء وطول المراجعة . فنعم هذا الخلق الكريم من

أبي الأسود وحبذا لو قلده فيه الكثيرون من الناس

ونختم هذا البحث بما رواه القاضي عياض في الشفاء عن عبد الله ابن أبي

الحساء قال :

بايعتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببيعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ  
(أي من المبيع) فوعدته أن آتية بها في مكانه أي حيث عُقد البيع فنُسيتُ ثم  
ذكرت بعد ثلاثة أيام فجئت فإذا هو في مكانه فقال :  
﴿ يافتي لقد شَقَقْتَ عَلَيَّ : أنا ههنا منذ ثلاثٍ أُنْتَظِرُكَ ﴾

## الحياء والاحتشام

« الحياء » ومثله « الاحتشام » انقباض النفس من الشيء وتركه حذرًا  
من اللوم فيه . أما « الخجل » فهو الإفراط في « الحياء » بحيث يضطرب المرء  
ويتحير من شدة « الحياء » أو بحيث تنقبض نفسه من فعل الشيء الذي لا ينبغي  
الاستحياء منه . « فالحياء » هو الاعتدال في الخلق ، وهو محمود . والخجلُ  
الإفراط أو تجاوز الحد فيه ، وهو مذموم . وهذا كثير من الأخلاق التي  
يُتجاوز فيها حدُّها الحمود إلى ضده : كالسرف بالنسبة إلى الجود . وكالتهور  
بالنسبة إلى الشجاعة . والحرص بالنسبة إلى الكسب . وقد قال الحكماء « حياءُ  
الرجل في غير موضعه ضعف » وقالوا أيضًا « الحياءُ يمنع الرزق » ويشبه أن  
يكون خلق « الحياء » أثرًا من آثار العقل في الإنسان أو هو مظهر من مظاهره  
الكبرى : إذ أنهما كليهما يعتلان المرء ويحبسانه عن فعل السوء والشر . قال  
الامام الغزالي : إذا رأيتَ الطفلَ يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس  
ذلك إلا لإشراق نور العقل في نفسه ، وهذه بشارة تدلُّ على اعتدال الأخلاق  
وصفاء القلب فيه : فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمَل بل يُستعان على تربيته  
بحيائه . وقد جعل الشرع الإسلامي هذا الخلق أيضًا من الأخلاق المقومة  
للايمان ، والتممة له . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحياءُ شعبةٌ من الإيمان ﴾

## ﴿الحياة نظامُ الإيمان﴾

و«النظام» السلك الذي يُمسك وَيُضْمُّ لآلِءِ العقدِ الحياءِ يَضُمُّ إليه جميع أخلاق الإيمان وفضائله السامية وإذا زال زالت هذه الأخلاق والفضائل . كسلك العقد إذا انقطع تبددت الآلِءُ ، وتناثرت في كل وجه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿الحياة والإيمان مقرونان : فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر﴾

## ﴿قلةُ الحياءِ كفر﴾

أي إنه يحمل صاحبه على ارتكاب ما لا يرضي الله وما يوجب سخطه . وهو كفر والمعنى أنه آية من آيات الكفر . وليس هذا فقط بل إن الشارع صلى الله عليه وآله وسلم جعل الحياء مُخْلَقَ دين الإسلام الخاص به فقال :

## ﴿لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء﴾

ولا غرور فإن هذا الخلق هو الذي يحمل الإنسان على فعل أو ترك ما يريده الإسلام من الإنسان في هذا العالم : فإذا استحكم هذا الخلق في نفس الإنسان صدّه عن كل قبيح ، وقاده إلى كل حسن . وعلى العكس إذا ضعف أثره واضمحل ، وحلت محله الوقاحة والسفّه سهل على صاحبه إذ ذاك ارتكاب كل منكر . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إن مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى : يا ابن آدم إذا لم تستح فاصنع ما شئت﴾

أي إن هذه الوصية من بقايا ما أوصى به الأنبياء أممهم في سالف الأقطاب . وقوله « فاصنع ما شئت » ليس أمراً بارتكاب ما شاء من الرذائل وإنما هو من أساليب بلاغة اللغة العربية : فهو يفيد أن المرء بعد فقد الحياء يصبح مأبوساً منه ، وجديراً بارتكاب كل رذيلة

ويروى أن عاتمة بن علاثة رضى الله عنه قال : عِظْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ . فقال

له ﴿ استحي من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك ﴾  
 أي أترك ما يسخطُ ربك عليك حياةً منه تعالى مثلاً أنك تستحي أن تفعل  
 شيئاً قبيحاً في مجلس ضمَّ عظماء عشيرتك والموقرين المحترمين من قومك ، وإن  
 الله خالقك أحق وأجدر بهذا الاحترام منهم . فالحياء من الناس حسن ولكن  
 الأحسن منه بل الأنفع لك أن تستحي من الله الذي تعتقد أنه مطلع عليك في  
 جميع حالاتك وخلواتك ، إذ أن الحياء منه تعالى يأخذ بحُجُزتك عن فعل كل  
 قبيح في كل وقت ، وفي كل مكان ، لا أمام الناس فقط . ومثلُ الحياء من  
 الله في النفع والفائدة استحياء الانسان من نفسه أي أن يكون لنفسه في نفسه  
 قيمة وحرمة فيترك القبيح حياءً منها ، وفراراً من توبيخها ، كما يتركه حياءً من  
 الناس ، وفراراً من تعييرهم . وإن لم يفعل سَجَلَ على نفسه بذل والصغار  
 مذ جعل نفسه في منزلةٍ أخطَّ وأسفل من منازل جميع الناس . والعاقل يربُّاً  
 بنفسه عن مثل هذا الموقف . وهذا ما عناه الشاعر بقوله :

( فَسِرِّي كإِعْلَانِي وَهَذِي خَلِيقِي      وَظَلَمَةُ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِي )

ومن اللطائف ما حكي أن اخواناً دعوا رفيقاً لهم الى بعض مجالس لهوهم  
 فلم يُجِبههم وكتب اليهم « اني دخلتُ البارحة في الأربعين من عمري وأنا أستحي  
 من سني » وكان أبو بكر رضي الله عنه يتمثل بهذا الشعر كثيراً :

( إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له      ولا أمانة وسط القوم عُريانا )

أي أن الوقح الذي لا أمانة له على سر تحمله وقاحته وقلته حياته على معالته  
 كل شيء والجرأة على ارتكاب كل قبيح على مرأى ومسمع من الناس فيعلمون  
 من سرائره وخلاته ما كان ينبغي أن يبقى مكتوماً ، ويصبح فيهم كأنه عُريان  
 مجرد لا يواريه شيء . ومن الكلمات المأثورة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام  
 في هذا المعنى قوله « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه »

## الامل واليأس

علمت مما ذكرناه في بحث « الصبر والشجاعة » ما لهما من الفضل والمزية والاثر البين في حياة البشر ونجاح مساعيهم أفراداً ومجتمعين . وقد بقي أن تعلم أن الصبر والشجاعة والثبات في الاعمال لا يحيينها في نفس المرء الا « الامل » ولا يُيمتها إلا اليأس . كن آملاً فأنت شجاع صبور ثابت ، وكن يائساً فأنت جبان جزوع مضطرب . « الأمل » قَبَسٌ من نور يمشي أمامك في مسارب هذه الحياة ، أما « اليأس » فسَدَفَةٌ من حلك الظلام تتكاثف أمام عينيك فتعمي عليك السبل ، وتسدُّ في وجهك أبواب النجاح . الامل روح العمل وكل عمل لا يتخلله أمل كان كالجسد الذي ليس فيه روح ، فسرعان ما ينحل ويدركه الفساد . فيكف لا يكون « الأمل » إذن من اكبر الفضائل النفسية ، وأعظم الواجبات الشخصية . وإن من طلب من نفسه الجماد والثبات في العظام ولحين اشتداد الالهوال والمصائب وهو يائس قانط كان كمن يزاول عملاً يبد مشلولاً . أو يرفع ثقلاً بعتلة (مُخَل) غير مستندة على نقطة ارتكاز . ومن ثمَّ شدَّد القرآن الحكيم في النهي عن (اليأس) وجعله من سمات الجاحدين فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ : إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

والمراد من ( رَوْحِ اللَّهِ ) رحمته وإحسانه ومعونته . وقال تعالى :

وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ؟ ﴿

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

فاذا كان اليأس منيئاً عنه أو محرماً في الاسلام كان ضده وهو ( الأمل )

مأموراً به ، ومعدوداً من كريم خصال الاسلام . وفي معنى الأمل « الثقة » و « الرجاء » و « التوكل » ومع هذا فلا بدّ من أن نشترط لهذه الكلمات الأربع شرطاً حتى يكون لمدلولها اعتبارٌ وقيمة في نظر الشرع والعقل ، ذلك أن يكون لك - وأنت « واثق » « راج » « آمل » « متوكل » - عملٌ أو سعي أو سوابق أو أسباب تستند اليها تلك الثقة ويبتني ذلك الأمل . والأفان كنت مفراطاً مهملاً متقاعداً عن العمل والسعي ومراعاة سنن الله ونواميسه في خلقه وقلت عن نفسك إنك « واثق » « راج » « متوكل » « آمل » كان هذا منك « تمنياً » و « غروراً » و « خداع نفس » وهي صفات مذمومة في الشرع والعقل . قيل للحسن البصري : قوم يقولون « نرجو الله ويضيعون العمل » فقال « هيهات هيهات ! تلك أمانيتهم يترجّحون فيها ، مَنْ رَجَا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً اجتنبه » وقوله ( يترجّحون ) أى كأنهم يتشبّهون بأرجوحة يتذبذبون فيها ، ويمايلون يَمْنَةً وَيَسْرَةً . فمحمود الأمل هو ما قارنه محمود العمل .

قال تعالى :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

أي ان الأعمال الصالحة خيرٌ ما يعتمدُ عليه الآمل في أمله وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾

فانظر كيف ناط رجاءهم وهو أمله بما سبق لهم من الأعمال الصالحة . وفي هذا النوع من الأمل المحمود قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِنْ الْأَمَلَ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْأُمَّةِ : لَوْلَا الْأَمَلُ مَا أَرْضَعَتْ أُمٌّ وَلَدَهَا ، وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرًا ﴾

فقد قرن الأمل بسعي الأم في الارضاع وسعي المزارع في الغرس . وقال بعض مشاهير الكتّاب المعاصرين « كم أنت أيها الأمل محبّب الى النفوس . أنت وحدك الذي تنقذ البشر من الحن والنكبات مهما تراكت » وقال كاتب آخر « الحياة أن تعرف وتؤمل وتحبّ وتعجب بكل ماهو جميل » وقال آخر « الحياة من غير أمل كالبيت من غير نافذة ، وهذا هو الاختناق بعينه » وقال بعض الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء . وقال الطغرائي :

( أعلّل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل )

وكل هذا محمول على الأمل الشرعي الحمود . أمّا إذا تجرّد الأمل عن العمل ، وتجلّس بالتواني والكسل ، فهو التميّ المذموم . وقد جاء الاسلام وصريح القرآن بالنهي على أصحابه فعابهم وطريقتهم مذ قال تعالى :

﴿ ذَرُّهُمْ يَا كُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وَالْكُفْرَ كَمْ فَنَنُفِمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصُمْ وَآرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

ومحصل القول أن الأمل الحمود هو انتظار أمر قد بذرت له البذور التي تُنبته ، ونُصبت من أجله الشباك التي تُمسكه وتثبتته . إغرس وأمل الثمرة . تزوّج وأمل الولد . اكتسب وأمل الرزق ، أمّا إذا أملت فيها من دون غرس ولا زواج ولا كسب كان فعلك باطلاً ، وأملك كاذباً .

وإذا تعاطيت الاسباب كان من واجباتك حينئذ أن تقوي في نفسك الأمل في النجاح ولا تجعل لليأس سبيلاً إليها . وأكمل ضروب الأمل وأوثقها أن تؤمل بالله تعالى الذي بيده الأمر كله . وهو الذي منحك القوى والمشاعر ، ويسر لك الأسباب والوسائط ، وأقدرك على

اتخاذها ، وطُرق التوسل بها . وهناك أقوام يذهلون عن هذا الضرب الكامل من الأمل فلا يستشعرونه حين التفكير في المستقبل . وإنما يجعلون كل ثقتهم وأملهم في عزائمهم ، وقوى نفوسهم . أو في إحكام ما دبّروه من الوسائل والأسباب وفي مُواتاة الأقدار والمصادفات . وهذه الثقة العمياء على قصورها وتقص كفايتها خيرٌ من اليأس والقنوط وتوقع الخيبة والحرمان من وقت الى آخر

ومن أقبح ضروب ( اليأس ) أن يتقاعد المرء فلا يتعامل سبباً في جلب خير ، أو دفع ضرر ، توهماً منه أن ذلك غير مُجديهِ نفعاً ، ولا مُنجيهٍ مما هو فيه . فيعيش كسفاً البال حزينا . وليس هذا يأساً بل هو في الحقيقة نوعٌ من الوسواس والحبَل إذا تَغَشَّى في الأمم ، واستحكم في نفوسها حتى صرفها عن النظر في مستقبلها والعناية بمصالحها كان من أقوى العوامل في تقويض بنيانها ، وتعفية آثارها وإدالة غيرها منها . أعاذنا الله منه ، ووقانا شرَّ عواقبه . وربما كان هذا النوع من اليأس هو الذي سمّت الآيات السابقة أصحابه كافرين وضالّين . وليس عاراً على الإنسان أن تصيبه نائبة من نوائب الدهر وإنما العار عليه أن يستسلم لليأس ويقنط حتى إذا سقط لم ينشط . وإذا رقد لم ينهض . وقد أشار القرآنُ الى أن خلق اليأس والجزع ممّا رُكِبَ في فطرة البشر . لكنّ الموفق منهم مَنْ عاجله فعالجه بترية نفسه وتقويم ما اعوج من أخلاقه . من ذلك قوله تعالى :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ إلا المصلّين

والمعنى ان الله تعالى خلق الانسان ، وغرس في نفسه هذا الخلق الذي هو الهلع . فهو « إذا مسه الشر » ونزل به المكروه من فقر أو مرض أو خوف

كان « جزوعاً » فيستولى عليه اليأسُ والقنوطُ ، ويحسب أن ما نزل به غير مُقْلَع عنه : فالفقرُ لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحّة ، والخوف لا ينسخه أمن . وكثيراً ما قاده يأسه الى ارتكاب معصية أو منكر أو قتل نفسه أحياناً . « وإذا مسه الخير » وتيسّرت له أسباب الرغد ، وغضارة العيش فأصبح غنياً ، موسعاً عليه في الرزق . صحيح الجسم معافى ، موفور الكرامة ، نافذ الكلمة ، ذا جاهٍ ومنصبٍ كان اذ ذاك « منوعاً » يمنع الناس رغبته وماله ومعونته والانتفاع بجباهه . ثم استثنى القرآن في تنمة هذه الآية أقواماً طبعوا نفوسهم بطابع التربية الصالحة . والقدوة الفاضلة ، فقوّوا فيها عاطفة التدين ، وحبّ الخير والتزام الحقّ والعدل ، فأمنوا وأحسنوا وعفّوا ووفّوا ، وعملوا الصالحات ، وكفّوا عن السيئات حتى نالوا أرفع الدرجات

## العمل والسعي

ليس بين الواجبات الشخصية ما هو أعزم وأوكد من واجب السعي والعمل . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ان الله كتب عليكم السعي فاسعوا ﴾

ومعنى « كتب » عزم وأوجب وألزم . وإذا كانت حياة الانسان الأدبية أو قيمته الأدبية متوقفة على واجب الصدق فان حياته المادية أو قيمته المادية متوقفة على واجب السعي والعمل ، سواء في ذلك الانسان باعتبار شخصه منفرداً أو فرداً عاشاً في أمة . وقد قال بعض كتاب الغرب « ليست الحياة يوم عيد ولا يوم حداد ، وإنما هي يوم عمل » وان عظمة الأمم انما تقاس بمقدار سعي أبنائها ، ومحصول أفعالهم . وكل أمة أنفت من الأعمال واستحلت طعام الراحة والبطالة اسرع اليها الفناء والاضمحلال ، وخلفها غيرُها من الأمم

العاملة الشيطنة : فالرومانيون مثلاً لم يبيدوا ويذهب سلطانهم إلا حين احتقروا العمل وأخذوا الى البطالة واللاهو والترف ، حتى كانوا يرون أن الأعمال لا تليق إلا بعبيدهم : وقد جعل الشرع الاسلامي حظاً كل انسان في حياته - الدنيوية والاخروية - منوطاً بعمله ومتوقفاً على مقدار سعيه لهما . فقال تعالى : ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾

أي ان حظه من المكافأة والنجاح في الدنيا والآخرة سيكون على قدر ما يبذله من العمل والسعي : خيراً او شراً قليلاً او كثيراً . وجاء هذا المعنى أيضاً في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ عَلَىٰ قَدْرِ هِمَّتِهِ وَنَهْمَتِهِ﴾

« هِمَّتُهُ » كدّه واجتهاده . و « نَهْمَتُهُ » حرصه ورغبته

ومما ورد في السنة من التنويه بشأن العمل أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذي جلد وقوة قد بكريسعى فقالوا « وَيَحْ هذا لو كان شبابةً وجَلَدَهُ في سبيل الله » أي في الطاعات البدنية من صلاة وصيام وجهاد . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿لَا تَقُولُوا هَذَا : فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ وَلَدِهِ صِغَاراً فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ لِيُعْفِيَهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَىٰ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ﴾

وسبيل الله كما يفهم من هذا الحديث كل طريق يسلكه الانسان في تحصيل مآبه خيره وسعادته وهناؤه ، بشرط أن يكون سعيه مرتكزاً على نية

صالحة ، وقصد كريم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم - في التحذير من البطالة وسوء نتائجها - :

﴿البَطَالَةُ تُتَقَسَّى الْقَلْبَ﴾

﴿إِذَا قَصَّرَ الْعَبْدُ فِي الْعَمَلِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْهَمِّ﴾

لاجرم أن الهموم والأكدار والأمانى الباطلة وقسوة القلب وجرائته في ارتكاب المحرمات والآثام والعدوان على الغير - كل ذلك إنما يكون من ذوي البطالة والفراغ والعطلة عن العمل . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿أَخْشَى مَا خَشِيتُ عَلَى أُمَّتِي كِبَرُ الْبَطْنِ ، وَمُدَاوِمَةُ النَّوْمِ وَالْكَسَلُ﴾

« كِبَرُ الْبَطْنِ » كناية عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجلبة للكسل ، والعجز عن متابعة العمل . فالشارع عاب الكسل عن العمل وما يؤدي إليه من الإفراط في النوم والأكل .

﴿سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا﴾

يعني أن الغنم والربح والمنافع الدنيوية إذا كانت تتوقف على السفر والضرب في البلاد فسافروا لأجل الحصول عليها ، فانكم إذا فعلتم تنالون ما تريدون منها ، وتستفيدون فوق ذلك صحة وقوة جسم . ولا تكسلوا فتلزموا بلكم مفضلين الراحة والبطالة والإعدام . فان هذا ليس من دأب ولا أدب أهل الاسلام

﴿إِعْمَلُوا فِكُلُّ مَيْسَرَةٍ لَّمَّا مُخْلِقَ لَهُ﴾

يشبه أن يكون أراد صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الرد على الكسالى المتقاعدین عن العمل . المتعللين بأن الله تعالى يُيسر لكل إنسان من حظوظ الدنيا وخيراتها ما كان سبق وقدره له في لوح علمه وتقديراته : فهو ينهاهم عن هذه الفكرة المقوتة المنافية لصحيح تعاليم الاسلام . ويقول لهم : أنتم اسلكوا

الطرق الموصلة عادةً الى خيرات الدنيا والآخرة ، والله تعالى يُيسر لكل منكم ما قضاؤه وقدره له . يعنى أن ما قضاؤه وقدره لكم هو غيب عنكم ، أما أسباب ذلك فظاهرة مبسوطة بين أيديكم ، فلماذا تعرضون عن هذه الاسباب الظاهرة القريبة من متناول هممكم ، وتشغلون أنفسكم بقدر الله الغائب عن متناول حواسكم . وما أحسن ما قاله الامام جعفر الصادق من أئمة آل البيت رضى الله عنهم في هذا المعنى « إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً : فما أرادنا بنا ( وهو القدر ) طواه عنا ، وما أرادنا ( وهو العمل ) أظهره لنا . فما بالناس نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا »

وبالجملة فإن أعدى أعداء العمل التوكل الكاذب المقرون بالاهمال والتقاعد وترك السعى . وأقوى أنصار العمل وأشد أركانه التوكل الصحيح الشرعي المقرون بالسعى والحركة والنشاط ، واتخاذ الاسباب الظاهرة التى أمرنا الله ونبيه صلى الله عليه وسلم بمراجعتها ، والسير على سننها . ويوضح ذلك ما كان من إرشاده صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابي الذي أراد أن يسرح ناقته فلا يعقلها ولا يوثقها اتكالا على الله مذ سمع ما للمتوكلين من الفضل . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم مفسراً معنى هذا الاتكال بأوجز عبارة وألطف إشارة :

﴿ اعْقِلْ وَتَوَكَّلْ ﴾

أي اجمع بين الأمرين : بين اتخاذ السبب ، وبين الاتكال عليه تعالى فى أن يجعل ذلك السبب مؤديا الى حفظ الناقة : فلا يعمدُ اليها لصَّ يسرقها أو غلام عارمٌ يحلُّ وثاقها ويُطلقها .

هذا هو التوكل الشرعي الصحيح : أن توجد أيها العامل عملك باتخاذ أسبابه . ثم تنفخ فيه روح التوكل على الله فلا تقنط من توفيقه ، وكريم عنايته ، وخفي لطفه . فاذا فعلت هذا شعرت إذ ذاك يرد الامل في قلبك ، ولذة العمل

في نفسك . أما التوكل من دون عمل ، والعمل من دون توكل فكلاهما ناقص التركيب ، ليس له من الفائدة والقيمة الشرعية أدنى نصيب .

وللأعمال والمساعي شروط وآداب : منها المحافظة على الوقت واعتباره رأس مال عظيم : فلا ينبغي أن يضيع منه جزء من دون عمل يُملأ به . وإن الوقت بالنسبة الى العمل كالارض بالنسبة إلى الزرع : فكما يجب عليك أن تحافظ على تملك أرضك لأجل بذر زرعك الذي هو مادة معيشتك كذلك يجب عليك أن تحافظ على وقتك من أجل ممارسة عملك الذي هو مادة حياتك . وقد نوه القرآن بالوقت : وأشار الى قيمته منذ أقسم تعالى فقال :

﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

جعل كل البشر في خسران . ثم استثنى منهم المؤمنين الذين يعملون الخير . ولما كان العمل لا يمكن أن يقوم بنفسه من دون وقت يقع فيه أقسم بالوقت فقال ( والعصر ) منبهاً الى وجوب مراعاته والاحتفاظ به . وكلمة ( العصر ) في أصل معناها اللغوي مطلق الوقت ، ثم شاعت في أحد معانيها وهو الوقت المتوسط بين الظهيرة والغروب .

ومن شروط العمل أيضاً الثبات عليه من دون ملل ولا ضجر . وإن عملاً قليلاً دائماً ترافقه الهمة والنشاط خير من عمل كثير يؤدي الملل منه إلى تركه والالتقاطاع عنه بتاتا . وهذا ما أراده صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ ﴾

ليست العبرة بالكثرة في العمل الذي يعقبه تراخ وكسل وإنما العبرة في المثابرة عليه ، وإن كان قليلا ، حتى يبلغ العامل الغاية منه .

ومن شروط العمل اختيار الاعمال النافعة ذات القيمة والأثر الحسن في مصالح الانسان الشخصية والاجتماعية . أما السعى والجد في أعمال عقيمة لا تفيد ولا تنفع أحداً فهو من الجهل أو الحق . كما يحكى أن أحد الملوك الاقدمين كف نقاشاً ماهراً أن ينقش صورته في الجليد ففعل بعد كد وتعب ، ثم مالبت أن ماع الجليد وغابت الصورة . وهكذا أعمالنا التي لانراعى فيها المصلحة الثابتة : لا تلبث أن تضمحل وتزول آثارها ، لكن قد يبقى علينا عارها .

بقيت مسألة شديدة التعلق بموضوعنا هذا : وهي أنه إذا كان للانسان من الرزق أو الارث ما يكفيه مؤونة العمل والسعى جملةً واحدةً أو يحتاج اليه في وقت دون وقت : فبعض الأقدمين من علمائنا يرى أنه ليس من واجبات هذين الشخصين العمل والسعى في كل وقت أو في بعضه مادام غير محتاجين اليه . فالأول يبقى في البطالة طول أيام حياته والثاني معظمها . لكن هذا القول إن كان يلائم حالتهم الاجتماعية في ذلك العهد فإن الحال اختلفت في زماننا . وأصبح العمل والسعى واجباً شخصياً أو اجتماعياً على كل فرد من أبناء مجتمعنا . حتى إذا كان الشخص نفسه مستغنياً عن الفضل والزيادة الناتجة عن عمله وسعيه فإن الوطن ومجموع الأمة غير مستغنين عن ذلك . وكل وطني مدينٌ لوطنه وأمته بوجوده وحياته وأمنه على نفسه وأملاكه وكرامته . ومن جهة ثانية فإن عظمة كل أمة وارتقاءها وثبات قدمها في هذا المعترك الهائل وسبقها ولو أشواطاً في هذا الميدان - الذي تتسابق فيه أمم العالم - كل ذلك يتوقف على عمل كل فرد من أفراد تلك الأمة ومبلغ سعيهم في إيجاد المشاريع العمرانية والاقتصادية . فقرة الأمة إنما تنتج عن شدة تعبها في أعمال حياتها ، والقيام بواجباتها . كما أن قوة الأسد الجسمية ما نتجت إلا عن شدة تعبها في تحصيل قوتها وضرورات معيشتها

( وما غلظت رقاب الأسد حتى بأنفسها تولّت ما عنها )  
 ومُحَصِّلُ القول ان العمل ركنٌ من أركان سعادة الفرد والجماعة وأنه ينبغي  
 للمُربِّين والمُعَلِّمين أن يقولوا للصغار : إن الطريق المفروش بالأزهار ، لا يوصل  
 الى المجد والعزّ والفخار . وان نجاحكم ونجاح وطنكم منوطان بعمل كل واحد  
 منكم ومتوقف على مقدار ما يبذله من الحركة والسعي والنشاط ، وانه ليس من  
 الأنصاف ولا العدل أن يعيش الانسان على حساب غيره من بنى وطنه فيستمتع  
 بخيرات الوطن الناتجة عن تعب أبنائه ومجهوداتهم المختلفة ثم لا يشاركهم في عمل  
 ما هو واجب عليه من هذا القليل ليستفيدوا منه كما استفاد هو منهم بالمقابلة .  
 وقد أوعد الشارع هذا العاقل الكسلان أشد وعيد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :  
 ﴿ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَكْفِيُّ الْفَارِغُ ﴾

ويعنى « بالمكفي » الذي يكفيه غيره ضرورات حياته ، و« بالفارغ »  
 العاقل عن العمل ، المُخلد الى البطالة والكسل . ومما يحسن إيراد في ختام  
 هذا الباب ما جاء في كتاب ( كشف الغمة ) عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه  
 قال جُعْتُ يوماً فخرجتُ أطلب العمل في عوالى المدينة فاذا أنا بامرأة قد جمعت  
 مدراً تريد بلة فقاطعتها : كل ذنوب <sup>(١)</sup> على تمرّة فملاّت ستة عشر ذنوباً حتى  
 مجلت <sup>(٢)</sup> يداي ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا بين يديها ( يعنى انه بسطهما لها  
 لترى مجملهما فتوفيه أجرته ) فعدّت لى ست عشرة تمرّة فأتيتُ النبي صلى الله عليه  
 وآله وسلم فأخبرته فأكلَ معي منها



(١) الذنوب بفتح الذال الدلو (٢) أي صابت فظهر فيها تدوب من متابعة العمل

## الزراعة والصناعة

هما أيضا من جملة طرق العمل والسعى كالكسب والتجارة . بل هما الأصل الذي بنى عليه نظام معيشة الانسان منذ يوم استقل انسانا مدنياً على وجه الارض . ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَفْضَلُ الْكَسْبِ الزَّرَاعَةُ ، فَانْهَاصْنَهُ أَيُّكُمْ آدَمُ ﴾

والإنسان بعد ان مارس الزراعة تحصيلاً لقوته زمناً طويلاً عاد فاشتغل في تحصيل ضرورات حياته الاخرى كالكساء والابناء والبناء من طريق الصناعة على أبسط حالاتها ، حتى إذا ارتقى في الصناعة والزراعة بعض الارتقاء ، وتكاثرت محصولاتهما بين يديه ، انتبه الى لزوم ثقلها والمقايضة بها . فنشأت التجارة ، ثم نشأت الامارة للحماية والدفاع عن الحوزة . وعلى هذه الآساس تكونت الجماعات ، وقامت المدينت . حتى بلغت حالاتها الحاضرة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون مصيرها ، والى أي حد ينتهي كمالها . ولما كان من دأب الشرائع السماوية العناية بسواد البشر وعامتهم ، وتهئية أسباب السعادة والراحة لهم ، وكانت الزراعة والصناعة الموردين الأغزرين لتوفير ثروتهم ، وتحصيل مواد معيشتهم - نوه الشرع الاسلامي بشأن هذين الموردين وحض على ممارستهما ، في غير ما نص من نصوصه . وقد كان معظم عمل الصحابة من أهل المدينة الزراعة والشغل في الحقول والبساتين كما كان معظم عمل الصحابة من أهل مكة التجارة والرحلة الى الأقطار من أجلها . وما كانوا رضي الله عنهم يأنفون من عمل ، ولا يزهدون في صناعةٍ مهما كان أمرها : فكان أبو بكر بزازاً ، وكان عمر سمساراً ، وعمر بن العاص جزاراً . وهكذا غيرهم . ومما ورد في القرآن من التنويه بالزراعة قوله تعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾

« فرشناها » أي بسطناها ومهدناها بين أيديكم ليسهل عليكم العمل فيها ،

والانتفاع بثمراتها وخيراتها

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾

أي انه تعالى إنما أجرى العيون والينابيع في الأرض لنسقي بها الأراضي الزراعية ، ثم نجني من ثمراتها ، وننتفع بغلاتها . وقد ذكر الله ذلك في صدد الامتنان على البشر ، وتذكيرهم بالنعمة . وشكر النعمة إنما يكون بالانتفاع بها ، لا باهمالها على مرأى من المنعم . وإن شكر نعمة الأرض التي فرشها الخالق تحت أرجلنا ، وأجرى في جنباتها العيون القريبة من متناول أيدينا ، إنما يكون بالحرث والزرع والسقي والاستغلال . بهذا كله نكون شاكرين للرب تعالى ، معترفين بفضله وسابغ نعمته . ومن الأحاديث الشريفة في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اَحْرُثُوا : فَإِنَّ الْحَرْثَ مُبَارَكٌ ﴾

﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ﴾

﴿ مَا مِنْ رَجُلٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ قَدْرَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِ ذَلِكَ الْغَرْسِ ﴾

﴿ مَا مِنْ أَمْرٍ يُحْيِي أَرْضًا فَيَشْرَبَ مِنْهَا ذُو كَبِدٍ حَرَّى ، أَوْ تَصِيبَ مِنْهُ عَافِيَةٌ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا أَجْرًا ﴾

(و) العافية ) هنا كل طالب رزق من انسان أو بهيمة أو طائر . فالشارع يقول للزارع : ان لك من وراء منفعتك الخاصة الحاصلة من احياء الأرض منفعة أخرى عامة خفية عنك وهي الأجر والثواب على ما تتناوله الطيور والدواب

من ماء أرضك وثمارها . وان كنت أنت أحيانا تكره ذلك ولا تريده ، على حدّ ما ورد في الأثر: يؤجر المرء رغماً عن أنفه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً ثَقَّةً بِاللَّهِ وَاحْتِسَابًا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعِينَهُ وَأَنْ يُبَارِكَ لَهُ ﴾

﴿ ان قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها ﴾

و (الفسيلة) شجيرة تنقل من منبتها الأصلية لتزرع في الأرض المهيأة لها . وفي هذه الأحاديث حض على تقب الأرض ، وغرس الأشجار ، وبذل الجهد في ذلك من دون تراخ ولا إهمال حتى ولو قامت القيامة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اطلبوا الرزق في خبايا الأرض ﴾ يعنى من طريق الفلاحة والزراعة فان بهما استخراج كنوز الأرض . وقد يدخل في طلب الخبايا استخراج المعادن المختلفة والانتفاع بها بالطرق المتعددة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النَّخْلُ وَالشَّجَرُ بَرَكَةٌ عَلَى أَهْلِهِ وَعَلَى عَقْبِهِمْ ﴾  
ذكر النخل أولاً لأنه الأصل في ارتزاق المخاطبين . وقوله « بركة » أي نفع وخير لهم ولأولادهم من بعدهم .

﴿ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ رَسُولِهِ : لَعَنَ قَاطِعُ السِّدْرِ ﴾  
قوله « من الله لا من رسوله » أي ان هذا الزجر عن قطع السدر من امر الله لا من امره صلى الله عليه وآله وسلم . والسدر شجر في الحجاز له ظل وورق وثمر يسمى النبق . وفي قطعه واتلافه مضرة عظيمة للناس الذين يستظلون به ويأكلون من ثمره ويستفدون بورقه وأغصانه . وان قوانين أهل المدينة اليوم تعاقب أشد العقاب من يسطو على الأشجار فيتلها أو يفسدها من دون سبب .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّخَذُوا الْغَنَمَ فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ ﴾

ولا يخفى أن تربية المواشى والدواجن أصبحت اليوم فرعاً من فروع الزراعة ،  
وعليه يتوقف موردٌ عظيم من مواردها

أما ماوردَ بشأن الصناعات والحرف والتنويه بأربابها فكثير أيضاً ، من  
ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الْحِرْفَةُ أَمَانٌ مِنَ الْفَقْرِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ ﴾

﴿ أَطْيَبُ الْكَسْبِ عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ ﴾

« عمل الرجل بيده » كناية عن ممارسة الصناعات اليدوية فإن كسبها من

أطيب الكسب

« وليس على عبد تقي تقيصةٌ إذا صحَّح التقوى وإن حاك أو حجم »

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أَمْسَى كَلَالًا مِنْ عَمَلٍ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ ﴾

« كلالاً » أي تعباً من طول ما عالج من شغل يده في نهاره حتى أمسى

وقد خصَّ صلى الله عليه وآله وسلم بعض هؤلاء الصناعات بالذكر فقال :

﴿ أَكْرِمُوا الْخِيَّاطِينَ وَالْخَطَّاطِينَ : فَإِنَّهُمَا يَأْكُلَانِ مِنْ أَعْمَاقِ

عُيُورِنِهَا ﴾

ومعنى أكرموا أعطوهم حقهم كمالاً وافياً من دون بخس ولا نقص . أو

إن المراد لا تحتقروهم . ثم علل ذلك بأن صنعتهم مُنْصِبَةٌ متعبة تحتاج إلى صبر

وتحديق واجتهاد بَصَرٌ ، في تبيين مواقع الأقلام ومغازز الإبر . ولا جرم أن

التحديق اذا استمر طويلاً أتعب العين وعرضها أحياناً كثيرة للعطب : ولعمري ان مرتبي الحروف في المطابع جديرون أن يدخلوا في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الخياطين والخطاطين » وان تشملهم الوصية النبوية في إكرامهم وتوفير حقوقهم .

## الكسب والتجارة

هذا الواجب شعبة من شعب واجب « العمل والسعي » . فالكسب تحصيل المال من أي طريق كان . والتجارة تحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع بيعاً وشراءً . أو هي شراء الشيء بأرخص ما يمكن من الثمن ثم بيعه بأغلا ما يمكن منه

واشتغال فريق من أبناء الأمة في هذا النوع من العمل واجب شخصي عليهم ، مادام أمر معاشهم متوقفاً عليه بحيث يستغنون به عن التسول واحتياج الناس . فمهما كان في طلب المعاش والكسب في تحصيل الرزق تعب ومشقة ، فإن التعرض لصدقات الناس وانتظار صلاتهم أشق على النفس وأصعب . وجاء في الحديث الشريف :

﴿ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا ثُمَّ يَغْدُو إِلَى الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبُ فَيَبِيعُ فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ ﴾

ولم يكف الشرع بهذا بل جعل طلب الرزق الحلال تعقفاً عما في أيدي الناس فرضاً دينياً ، فقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

﴿ طَلَبُ الْحَلَالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ﴾

والفرض والوجوب بمعنى واحد في أصل الاستعمال الشرعي ، ثم فرق

الفقهاء بينهما . وأثنى الصحابة رضى الله عنهم ذات يوم على رجل فقالوا : يا رسول الله إن فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر . فقال « أيكم يكفيه طعمه وشرا به ؟ » قالوا : كلنا يا رسول الله ، فقال :

﴿ كلكم خير منه ﴾

فهذا يدل على أن التقطاع للعبادة إذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة إلى الناس لا يكون فضيلة دينية مالم يعضدوها فضيلة كسب المال ، والاستغناء به عما في أيدي الناس . وهكذا كان دأب الصحابة والسلف رضى الله عنهم : فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من واجبات المرء الشخصية التي لا مندوحة عنها . ناهيك أن أبا بكر رضى الله عنه سعى يوم بؤيع بالخلافة إلى السوق طلباً للكسب حسب عادته ، ولم ير الخلافة بالتى تمنعه عن السعي حتى عارضه الصحابة في ذلك خشية أن تشغله أمور تجارته عن القيام بأعباء الخلافة ، وفرضوا له كفايته من بيت المال . وقال عمر رضى الله عنه : إني لأرى الشاب فيعجبني فأسأل : هل له من كسب ؟ فيقال لا . فيسقط من عيني . وكان لأبي الأسود الدؤلى ابنه يقال له أبو حرب ، فلزم منزل أبيه في البصرة لا ينتجع أرضاً ، ولا يطلب رزقاً . فعاتبه أبوه في ذلك فقال : « إن كان لى رزق فسيأتيني » فقال أبو الأسود :

( وما طلب المعيشة في التمني ولكن ألقِ دلوك في الدلاء )

( تجىء بملئها طوراً ، وطوراً تجىء بحمأة وقليل ماء )

لاحظ أبو الأسود أن ابنه إنما يخدع نفسه بالتوكل الكاذب المنهى عنه في الشرع فأرشده في هذين البيتين إلى حقيقة التوكل وأن المعيشة لا تكون بالتمني والتعلل بالتقدر ، وإنما تكون بإلقاء الدلو بين الدلاء . وهو كناية عن اللجوء في غمار التجار ومشاركتهم في أعمالهم : فطوراً يكسب المرء كثيراً ، وطوراً

قليلاً . ثم انه بالصبر والثبات وحسن المعاملة والمهارة في الاحتيال على الكسب ينال منه بتوفيق الله ما أحب

وروى الامام أحمد في مسنده قال : كانت للمقدام بن معدي كرب الصحابي جارية تبيع اللبن ويقبض هو ثمنه . فقيل له : سبحان الله !! أتبيع اللبن وتقبض الثمن ؟ فقال : نعم وما بأس في ذلك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

﴿ لَيَأْتِينَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا الدَّرْهَمُ وَالِدِّينَارُ ﴾

عابوه رضى الله عنه بما كان منه من هذا الكسب ، فأجابهم بأنه لا ضرر في ذلك مادام المال شيئاً لا بد منه للانسان ، لاسيما في آخر الزمان الذي تتغير فيه حالة الاجتماع وتتنوع أساليب المعيشة وتتعدد تكاليف الحياة . قال رضى الله عنه هذا القول في صدر الأسلام وسماه آخر الزمان . وقد كان العمران الاسلامي إذ ذاك في طور التكون والنشوء ، فكيف لو رأى زماننا هذا وتفنن أهله في أساليب كسبهم وطرق معاشهم . لا جرم أن ميدان العمل للكسب أصبح اليوم أرحب ، وطلب المال والتجمل به بين الناس صار أوكد وأوجب . وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى « والله ما أقول لك إلا نصيحاً : إنه ليس الى السلامة من الناس سبيل : فانظر ماذا يصلحك فافعله »

وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه قال « يارب حتى متى أتردد في طلب الدنيا ؟ » فقيل له : « أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا » يعنى ليس هو من طلبها المذموم

ولما نسخ القرآن وجوب قيام الليل على الصحابة ذكر لذلك أسباباً ، ومن تلك الأسباب المشاق التي يقاسيها التجار في أسفارهم ، وقد قرنهم بالذكر مع

المجاهدين المدافعين عن الحوزة ، فقال تعالى :

﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

اي ان منكم معشر الأمة من يتنقل في البلاد للتجارة ومنكم من يحارب من أجل الدفاع عن الحق ، وتكليفكم قيام الليل مع نشوء هذه الطوائف في هيئة اجتماعكم أصبح شاقاً عليكم غير داخل تحت طاقتكم ووسعكم ، فاقترضت العناية الالهية تخفيف ذلك عنكم . وقد قدم الوحي فريق التجار في الذكر على فريق المحاربين : لأن التجار كثيراً ما كانوا طلائع للمحاربين ينسلون أولاً الى البلاد الأجنبية بقصد التجارة فيها وبذلك يمهّدون السبيل أمام الغازين الفاتحين . وقد عهدنا مثل ذلك في تاريخ الفتح الاسلامي في قارة افريقيا وأقصى الشرق ، كما عهد مثله في تاريخ الاستعمار الأوروبي في سائر القارات منذ أربعة مائة سنة الى اليوم

أما السنة الشريفة فقد جاء فيها أحاديث كثيرة تحض على التجارة وكسب المال الحلال من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التَّجَارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا ، وَإِذَا أَتَمُّنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يَخْلِفُوا . وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمَّوا ، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرَوْا . وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطَلُوا ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسَّرُوا﴾

مدح صلى الله عليه وآله وسلم التجار وشرط أن يكونوا متصفين بما ذكر من الصفات . وقوله « إذا حدثوا » أي بشأن أشغالهم ومتاجرهم إذ كثيراً ما أدخلوا الغش على الآخرين بمثل هذه الأكاذيب فورطوهم معهم في معاملات كانت عاقبتها الخسار والافلاس . وقوله « وإذا اشترؤا لم يذموا » أي البضاعة التي اشترؤوها إظهاراً لتفضلهم على البائعين في شراء تلك البضاعة . وقوله « وإذا

باعوا لم يُطروا» أي لم يبالغوا في مدح بضاعتهم التي يريدون بيعها غشاً وتغريراً.  
وقوله « وإذا كان عليهم » أي حق للآخرين « وإذا كان لهم » أي حق عند  
الآخرين « لم يُعسروا » أي لم يلحوا في طلب حقهم بحيث يدخلون عليهم  
العسر والضيق بل يمهلونهم ويحسنون تقاضيتهم. وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ تَعَبًا فِي طَلَبِ الْحَلَالِ ﴾  
﴿ مَنْ بَاتَ كَالًا مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ بَاتَ مَغْفُورًا لَهُ ﴾

ومعنى (كالاً) تعباً خائراً القوة

﴿ إِنَّ مَنْ الذَّنُوبِ ذُنُوبًا لَا تُكْفَرُهَا الصَّلَاةُ وَلَا الصَّيَامُ وَلَا الْحَجُّ :  
تُكْفَرُهَا الِهُمُومُ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ ﴾

و « الهموم » جمع همّ يحتمل أن يراد به الغم والكدر كما هو الأشهر في  
استعماله اليوم ، أو يراد به معناه الآخر وهو الجِدُّ والاهتمام بالأمر والعزم عليه .  
ومنه الحديث الشريف :

﴿ كَلُّكُمْ حَارِثٌ ، وَكُلُّكُمْ هَمَامٌ ﴾

« حارث » أي كسب للـمال ، و « همام » أي يجدُّ في مصالحه ويهتم

بطلبها

﴿ الْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءَ ، تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي طَلَبِ الْحَلَالِ ﴾  
﴿ الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءَ : تِسْعَةٌ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ وَجُزْءٌ فِي سَائِرِ الْأَشْيَاءِ ﴾  
والمراد بالعافية هنا أن يكون المرء في معافاة من الناس ومتاركة : لا هم  
يُقلقون راحته بطلب حق منه أو ثار ، ولا هو يقلق راحتهم بشيء من ذلك .  
ولا جرم أن من كان مشغلاً بتحصيل الرزق ألهاهُ ذلك عن الفضول وفعل ما  
يضر الناس . وهم بالمقابلة لا يضرونه . ومعظم متاعب الشخص إنما ينشأ عن  
بطالته : فإن البطالة والاعراض عن الكسب يمهّد السبيل إلى النزاع والخصام

مع الناس . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿الكسبُ حبيبُ الله﴾

﴿أفضلُ الأعمالِ الكسبُ الحلال﴾

﴿طلبُ الحلالِ جهاد﴾

﴿نعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالح﴾

﴿مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالًا اسْتَعْفَافًا عَنِ الْمَسْئَلَةِ ، وَسَعِيَ عَلَى عِيَالِهِ ، وَتَعَطَّفًا عَلَى جَارِهِ ، لَقِيَ اللَّهَ وَوَجْهَهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ﴾

يذكر في هذا الحديث شيئاً من آداب الكسب وشرائطه : منها ( حسنُ النية ) فلا يقصد في جمع المال التباهي على الغير ، أو التوصل به الى ارتكاب مالا يحل ، وإنما يقصد صيانة كرامة النفس عن سؤال الناس ، والتوسعة على عائلته ، فيعيشون في خفضٍ وراحة بال . ثم يهتم بعد عائلته بأمر المعوزين من سائر الخلق . وخص الجار بالذكر لأن العناية به أو كد من المعوزين الآخرين والا فغير الجار كالجار في وجوب مواساتهم ومد يد المعونة اليهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إِذَا صَلَّيْتُمُ الْفَجْرَ فَلَا تَنَامُوا عَنْ طَلَبِ أَرْزَاقِكُمْ﴾

﴿بَاكِرُوا فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَالْحَوَائِجِ ، فَإِنَّ الْغُدُوَّ بَرَكَةٌ وَنَجَاحٌ﴾

هذه الأحاديث في بيان أدب آخر من آداب الكسب ، وهو المبادرة اليه منذ الصباح : إذ يكون الجسم أنشط ، والنفس أطيب ، وحال الهواء ملائماً ، والجلب متراكماً . فيختار منه ما يناسبه ، ويظفر بحاجته من أطايه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿اجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ : فَإِنَّ كَلَامَ مُيَسَّرٍ لِمَا كُتِبَ لَهُ﴾

﴿ أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ : فَإِنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حُرِّمَ ﴾

وهذا من آداب الكسب أيضاً وهو الاجمال والتأني وترك الحرص الشديد والنهم المفرط الذي يؤدي بالكسب تارة الى الحرام من المال ، وطوراً الى الحسد وكره منافسيه في التجارة مديراً هم أحسن حالاً ، وأوفر مالاً منه . وربما أداه حرصه وحسده الى الهم والغم أو الى المرض واعتلال الجسم . والشارع إن كان يمدح الهمة والنهمة في طلب الرزق أحياناً فانما يراعى في خطابه هذا حالة بعض الكسالى المتقاعدين عن الكسب اتكلاً على الاقدار ، ومصادفات الليل والنهار ، فهو يرشدهم الى وجوب السعي ، وأن رزق كل إنسان على مقدار سعيه ونهمته وهمته كما جاء في بعض الأحاديث . أما في هذا الحديث الذي يتضمن الأمر بالاجمال فيخاطب من أفرط في الحرص وجمع المال الى حد أن يلوّث ذمته أو يفسد صحته ، أو يقوده حسده لمنافسيه في التجارة الى مباداتهم بالشر ، ومصارحتهم العداوة . فمثل هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّقِ اللَّهَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ ﴾

﴿ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ﴾

وأمثال ذلك مما يسكن نفس المفرط في الحرص ويقلل من أطماعه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الْجَائِلُ مَرْزُوقٌ ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ ﴾

﴿ بَشِّرَ الْعَبْدَ الْمُحْتَكِرَ : إِنَّ أَرْخَصَ اللَّهِ الْأَسْعَارَ حَزِينَ ، وَإِنْ أَغْلَاهَا

فَرِحَ ﴾

« الجالب » الذي يجلب البضائع الى بلده من البلاد الأخرى فيسهل على الناس .

أسباب المعيشة بإكثار موادها بين أيديهم . وضده المحتكر الذي تكون لديه السلع ومواد المعيشة متوفرة فيحجزها عن الناس رجاء ارتفاع أسعارها ثم يبيعها عليهم وفيهم الفقير وذو الحاجة . فلاحتمار ليس من الأخلاق الإسلامية ، ولا الآداب الاجتماعية . وقد مقته الشارع أشد مقت كما سمعت . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لَيْسَ مِنَ الْمَرْوَةِ الرَّبْحُ عَلَى الْإِخْوَانِ ﴾

أي ليس من الفضائل الإنسانية أن يأخذ البائع ربحاً كثيراً من إخوانه في البضاعة التي باعهم إياها . ولعل ما قلناه هو المراد في الحديث أي الربح الكثير الفاحش ، لا أصل الربح . والأفان في ذلك ضرراً يئناً على الباعة الذين لهم اخوان كثيرون . ويمكن أن يقال أيضاً انه ليس من المروءة للمشتري أن يكاف صاحبه البائع أن لا يربح عليه أصلاً . لم نظفر بحديث في هذا المعنى ، لكنه مما يلتحم مع آداب الاسلام ، ومع ميزان العدل العام ، الذي نصبه الشارع بين أهل الاسلام . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ اشْتَرَى سَرَقَةً وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا سَرَقَةٌ فَقَدْ شَرِكَ فِي عَارِهَا وَاثْمِهَا ﴾

سرقة أى بضاعة أو متاعاً مسروقاً ، فإن له نصيباً مع سارقه في العار

والذنب

﴿ التَّاجِرُ الْجَبَانُ مُحْرَمٌ ، وَالتَّاجِرُ الْجَسُورُ مَرْزُوقٌ ﴾

﴿ سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَرْزُقُوا ﴾

في هذين الحديثين حض التاجر على الجراءة وقوة الارادة في الأشغال ، فلا يكون جباناً ولا متردداً : فإن ذلك يؤدى به الى الخيبة والحرمان غالباً . واذا احتاج الأمر الى السفر والضرب في البلاد البعيدة من أجل الرزق والربح

قليل فعل ولا يجبن فإن في السفر صحة ورزقا

ومما يحسن إirاده هنا هذه القطعة الشعرية في الحث على الكسب وطلب المال من طريق السفر والرحلة . وهو ما ينبغي انشاده للأحداث ، وتلقينهم إياه وتفهيمهم معناه :

( اقذف السرج على المهب ر وقرطه اللجاما )

( ثم صبّ الدرع في رأ سي وناولني الحساما )

( فمتى أطلب ان لم أطلب الرزق غلاما ؟ )

( سأجوب الأرض أب غيه حلالاً لا حراماً . )

( فاعلّ الظعن يقصي الفقر أو يدني الحماما )

( قرطه اللجاما ) أي ضع اللجاما من رأسه موضع القرط وهو الزينة المعروفة التي تعلّق في شحمة الأذن . وقوله ( صبّ الدرع الخ ) أي ألبسني إياه . وقد أشار بذلك الى أنه يريد أن يتعرض للأخطار في سبيل انفاذ مقصده فهو يستعدّ لدفعها بتقلد السلاح . و ( أجوب ) أقطع . و ( يقصي ) يُبعد . ويروى ( ينفي ) الفقر ( مكان ) يقصي الفقر ( ومعنى ) يدني ( يقرب . و ( الحمام ) الموت

## الاقتصاد و الاسراف

ومما له تعلق بما مرّ من المباحث بحث « الاقتصاد والاسراف » . و ( الاقتصاد ) باعتبار انه علم هو تدير المال ، وتقليبه في الوجوه المختلفة ليغزُر وينمو . وهو من أشهر العلوم العصرية ، ومن أهم ما يُعنى به الاجتماعيون والاداريون من بين علوم الحضارة والعمران ، في هذه الازمان وأكثر ما يراد ( بالاقتصاد ) في اصطلاح الكتاب ما نريده نحن في هذا الفصل : وهو الإبقاء على شيء من المال وارصاده لأيام الاحتياج اليه بعد

الاتفاق جملة المال . ومثله (التوفير) لكن هذا المعنى لا يفهم من تينك الكلمتين في أصل الوضع اللغوي لأن (الاقتصاد) في اللغة معناه القصد في النفقة ، وهو العدل فيها والتوسط بين الاسراف والتقتير . كما أن (التوفير) معناه اللغوي تكثير المال وتنميته وذلك باضافة غيره اليه . غير أنه لما كان الاعتدال في النفقة والتوسط بين التقتير والتبذير من شأنه أن يؤدي الى استبقاء بقية من المال كما يؤدي الى تراكم هذه البقايا وتكاثرها باضافة غيرها اليها وقتاً فوقتاً وسنةً فسنةً سموا الاستبقاء على هذه الصورة (اقتصاداً) و (توفيراً) وضدهما (الاسراف) (والتبذير) . وهناك كلمة تفيد استبقاء شيء من المال في أصل الوضع اللغوي ، وحيداً لو يشيع استعمالها بين الكتاب وهي (الإفضال) ومثلها (الاستفضال) : يقال (أفضل) الرجل (واستفضل) إذا أبقى فضلاً وبقية . وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً كَسِبَ طَيْباً ، وَأَنْفَقَ قَصْداً ، وَقَدَّمَ فَضْلاً لِيَوْمِ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ ﴾

(كسب طيباً) أي من الرزق الحلال الطيب (وأنفق قصداً) أي عدلاً من غير تقتير ولا اسراف . و (قدم فضلاً) أي بقية يقيمها من نفقاته يدخرها الى أن يقدمها لنفسه في أيام عجزه وشيخوخته التي يرافقها غالباً الفقر والحاجة . فما أحسن هذا الأدب الشرعي ، وما أشد حاجة الناس اليه على اختلاف أدوارهم وأطوارهم .

وإن الاقتصاد على هذه الصورة التي علمنا إياها الشارع من الواجبات الشخصية التي ينبغي أن يراعيها الانسان في واجب الكسب والتجارة والزراعة والصناعة . فلا يدخل عليه المال من هنا ثم يُطْلَقُ يده فيه فيبدده ويُتْلَفُه ويخسر الوسطة التي يكون بها نيل الخيرات وفعل المكرمات والفوز بالرغبات . كما

يجب عليه من جهة ثانية أن لا يشحَّ بما يجمع من المال ، ويحرص عليه الى حدِّ التقتير على نفسه وعياله في ضرورات معيشتهم ، فيُصبح كأنه فقير حقيقة وهو غنى اسماً وصورة :

( ومن يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةً فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ الْفَقْرُ )

ومن الآيات الحامضة على العدل في النفقة قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾  
 ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ بَذَرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ ﴾

﴿ مَا عَالَ مِنْ اقْتَصَدَ ﴾

ومعنى ( عال ) افتقر واحتاج

﴿ التَّدِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ ﴾

﴿ الْاِقْتِصَادُ فِي النِّفْقَةِ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ ﴾

ومحصل القول أن الاقتصاد واستفضال شيء من النفقة أساس التدبير المنزلي . ومن أول الواجبات الشخصية . وهو الملجأ الأمين الذي يأوي اليه أرباب العائلات ، فيجدون فيه الهدوء والراحة والسرور وحرية التمتع بالنعيم والخيرات التي أفاضها الخالق تعالى عليهم . قال بعض كتّاب الغرب : قد عاينت الأمور وعانيتُها ، ثم بعد تفكير عميق في الحياة لم أجد سوى أمرين ربما جلبا السعادة : ( الاعتدال في مطالب النفس ) و ( حسن التصرف في الثروة ) وقد سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الذي يحرص على ماله فلا

ينفقه ولا ينتفع به ( عبداً ملعوناً ) مذ قال :

﴿ لُعِنَ عَبْدُ الدَّرْهِمِ ، لُعِنَ عَبْدُ الدِّينَارِ ﴾

أي طرد من رحمة الله ذاك الذي كأنه يعبد درهماً وديناره من فرط حرصه عليهما ، وملازمته لهما . ومما ورد في الحث على التمتع بالمال والانتفاع به قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ عَلَيْكَ : فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُهُ عَلَى عَبْدِهِ .

حَسَنًا ، وَلَا يُحِبُّ الْبُؤْسَ وَلَا التَّبَاؤُسَ ﴾

و (البؤس) شدة الاحتياج . و (التبؤس) أن يظهر ذلك من نفسه بقوله أو فعله ، كأن يلبس خشنًا ، ويأكل تافهاً . فالمال وحده لا يكون سبباً للسعادة ما لم ينضم إليه عقل يساعد صاحبه على حسن التصرف في المال ، وطرق الانتفاع به . وقد قال أحد الاقتصاديين « إن أوقية ذهب تحتاج إلى قنطار عقل » . وكم من الأغنياء من كانت ثروتهم سبباً في خمولهم وموتهم الأدي ، بل كم منهم من يجد في قصوره أتعاباً وآلاماً لا يجدها الفقير في كوخه . وقد ينظر صاحب الكوخ إلى قصر الغني الذي بجانبه فيشعر بلذة في النظر إليه لا يشعر بها صاحب القصر نفسه . فعلينا إذن قبل أن نسأل الله مالاً أن نسأله عقلاً نهتدي به إلى حسن الانتفاع بالمال . ومن جملة ما علمنا إياه الشارع من الآداب الاقتصادية ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَقْلِلْ مِنَ الدَّيْنِ تَعَشْ حُرًّا ﴾

أي اجتهد في الاقتصاد والاستفضال والموازنة بين دخلك وخرجك : فلا تدع نفسك تحتاج إلى الدين فتعتاده فتتراكم عليك الديون فيطارذك الدائنون ويعسرونك فتفقد حريتك وتصبح عبداً لهم . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ الغفلةُ في ثلاثة أشياء ﴾ وعدُّ منها ﴿ غفلةُ الرجلِ عن نفسه في الدِّينِ حتى يَرَكِبَهُ ﴾

ومن وصاياه ﷺ - المفيدة في حفظ الثروة وعدم التفریط فيها - الاحتفاظُ بالعقار : فلا يبيعه صاحبه ، وإذا باعه كان عليه أن يبادر الى شراء غيره : لأن المال النقْد سريع الفرار وشيك الضياع فقال :

﴿ مَنْ بَاعَ داراً أو عقاراً فلم يَرُدْ ثمنه في مثله فذلك مال قمينٌ أن لا يُبارك له فيه ﴾

قوله ( فذلك ) الخ اي فذلك المال النقْد الذي أخذه ثمناً ( قمينٌ ) اي جدير أن يضيع ويخسر بركته والانتفاع به . وقال بعض كبار الاقتصاديين : الناس فريقان : فريق اقتصد وفريق أسرف . فجميع السفن التجارية ، والسكك الحديدية ، والمعامل الصناعية ، وسائر المشروعات الاقتصادية التي تأسست عليها هذه المدينة العبقريّة - هي كلّها من أعمال الفريق الذي اقتصد . أما الفريق الذي أسرف ثم اضطر أن يستدين لسدّ حاجاته فقد أصبح على تمادي الأيام رقيقاً للفريق الأول . وهي سنة الله في خلقه

